

التمهيد :

نزل القرآن والمجتمع الإنساني بصورة عامة والمجتمع العربي بصفة خاصة بتطلع للتغير ويتربّب وقوع الحدث العظيم الذي ينتشله من واقع الصناع والشرك والضلال والإغلال وسيادة قانون الغاب .

وفي وسط هذه الظروف سطع نور الإسلام ليبدد دياجير الظلام ويحدث تغييراً في جميع نواحي الحياة ، والنظم التي جاء بها القرآن تحمل في ثناياها منهاجاً تطويراً يتلاءم وظروف الزمان والمكان ويستهدف مصلحة البشرية كافة ، كما في قوله تعالى : **فَلِّيَا أَيَّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . . .**⁽¹⁾

وفي خطابه (ﷺ) لمبلغ هذه الرسالة قائلاً : **وَمَا أَرْسَلْتَكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**⁽²⁾ .

يعد تأكيداً على عظم هذه الرسالة وكما لها خصوصاً وان مصدرها الخالق (ﷺ) وهي بذلك خالية من النقص ومتلك الهيبة لكون المؤمنين يدينون لخالقهم بالعبودية كما جاء في قوله تعالى : **إِذْلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدَىٰ لِلْمُتَّقِينَ**⁽³⁾ .

وهنا يظهر اختلافه عن الأنظمة الوضعية التي مصدرها الإنسان ، وتميز القرآن بشمل أنظمته مجالات الحياة كافة لا يوجد شيء يخص الفرد أو الجماعة أو الدولة أو المجتمع الإنساني إلا ومنه توجيه من التشريع كما جاء في قوله تعالى : **وَلِكُنْ تَضْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدَىٰ وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**⁽⁴⁾ .

إن خلقه (ﷺ) لبني آدم ليس من دون غاية أو هدف أو ليترك سدى ، كما جاء في قوله تعالى : **أَيْخَسْتُ الْأِنْسَانَ أَنْ يُنْزَكَ سُدَىٰ**⁽⁵⁾ ، بل جعل له مصدر هداية : **فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَائِي فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى**⁽⁶⁾ .

فالقرآن العظيم نظام حياة وقانون وعدل ، لقد حملت السور المدنية في طياتها تشريعات في البيع والإجارة والربا

¹) سورة الأعراف ، من الآية : 158 .

²) سورة الأنبياء ، الآية : 107 .

³) سورة البقرة ، الآية : 2 .

⁴) سورة يوسف ، من الآية : 111 .

⁵) سورة القيامة ، الآية : 36 .

⁶) سورة طه ، من الآية : 123 .

والجناية من قتل وسرقة والأحوال الشخصية من زواج وطلاق وان أصول الأحكام التي جاء بها التشريع المدني هي أشبه ما تكون بقوانين الدولة ، وكان التشريع أكثر ما يكون بمناسبة حوادث تحدث في تحاكم فيها المتخاصمون إلى رسول الله (ﷺ) فتنزل الآيات ناطقة بالحكم ، وكان الناس حتى في المدينة يسيرون فيما لم يرد به حكم إسلامي على المألوف عندهم في الجاهلية . وخاصة أن العرب كانوا شديدي التمسك بعاداتهم وأعرافهم⁽¹⁾ ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿سَيِّقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آتَأْوْنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَّلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَيْنَا فُلْلٌ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَسْتَعْنُونَ إِلَّا الطَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾⁽²⁾

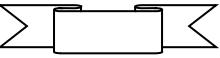
لهذا نرى أن آيات الأحكام قد أبقيت على الكثير من التقاليد التي كان العرب يتمسكون بها في الجاهلية سواء منها ما يتصل بحياتهم الاجتماعية أو العائلية أو ما لها صلة بحياتهم الدينية وطقوسهم مما ليس له مصنة على بناء المجتمع الإسلامي الجديد أو على مبادئ وتعاليم الإسلام ، كما أبقي بعض مشاعر الحج كما في رمي الجamar والطواف والوقوف بعرفه وعند المشعر الحرام وتحريم الصيد في الإحرام وحرمة الأشهر الحرم وكذلك أبقي نظام التسري بالإماء والإبقاء على حالة الرق مع التشريع على تحرير الرقيق ومعاملتهم بالحسنى⁽³⁾ ، لأن الكثير من العادات راسخة لا يمكن إلغاؤها جميعها وتعصب الناس لها ، وان إلغاءها جميعها يشكل عقبة في وجه انتشار الدعوة للإسلام هذا علماً بأن نظام الرق كان سائداً في جميع المجتمعات القديمة ، وكان موجوداً في الديانتين اليهودية والمسيحية ، وقد ألغى الإسلام ما يتنافي مع المبادئ والقيم السامية ومع الذوق الرفيع والمصلحة العامة ، كالزواج بزوجة الأب والجمع بين الأخرين والذبح عند الأنصاب والزنا والتخادن والمسافحة وشرب الخمر والاستقسام بالازلام وغيرها⁽⁴⁾ .

¹ (?) احمد أمين ، فجر الإسلام ، 279-1/281 .

² (?) سورة الأنعام ، الآية : 148 .

³ (?) دروزة ، عصر النبي ، ص 180 .

⁴ (?) المصدو ، نفسه ، ص 180 .



الفصل الأول

القبيلة ومكوناتها وعناصرها:

لقد كان النظام القبلي السائد في المجتمع العربي والبيئة العربية والذي لم يكن مقتصرًا على الصحراء فحسب بل حتى في اغلب المدن الموجودة في أطراف الجزيرة العربية ، وتمثل القبيلة الوحيدة السياسية والاجتماعية فيها^(*) ، كما جاء في قوله تعالى : **وَحَعْلَتَاكُمْ سُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْقَاكُمْ...** ⁽¹⁾

ولم يقتصر تأثير النظم البدوية في الحياة العربية ما قبل الإسلام بل أثرت في نظم الحياة في عصر الإسلام أيضاً ونجد ذلك واضحاً في كثير من أحداث التاريخ الإسلامي .

والقبيلة : هي مجموعة من الناس ينتسبون إلى أصل واحد أو يزعمون أنهم ينتسبون إليه أو إلى جد واحد انحدروا منه⁽²⁾ ، كما في قوله تعالى : **إِيَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ**

*) وقد تكلمنا عن القبيلة في الباب الأول كنظام سياسي ص 29.

¹ (?) سورة الحجرات ، من الآية : 13 ، ولهذه الآية معنى حضاري ، وهو أن الغرض من هذه الكثرة من الخلق هو التعارف وليس من الضروري

أن يشيع بينهم الاقتتال والتقاطع ، ومنه إشارة أن أسباب التفاضل

عندهم هي غير ما عند الله وهي التقوى ؛ ينظر الحنفي ، جلال

البغدادي ، الحضارة الإسلامية من خلال الآي القرآني ، ط 1 ، دار

الشؤون الثقافية العامة ، (بغداد-2003) ، ص 130 .

²) ابن منظور ، لسان العرب ، 11/541 ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، 2/424 .

**نَفْسٌ وَاحِدَةٌ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَتَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا
وَنِسَاءً ...** ⁽¹⁾

ويسكنون منطقة واحدة يتنقلون في أرجائها أو إلى ما جاورها من المناطق إذا اقتضت الحاجة ، تربطهم رابطة الدم والعصبية للأهل والعشيرة ، وقد وردت إشارة إلى ذلك في قوله تعالى : **إِنَّ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَآبَانَاؤُكُمْ وَأَخْوَانَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالُ أَفْتَرَ فِتْمُوهَا وَتِحَارَهُ تَخْشُونَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْصَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ . . .** ⁽²⁾

ويختلف أعداد أفراد القبيلة من قبيلة إلى أخرى فالقبيلة في حالة تغير فهي تتجزأ إلى عشائر ويطوون نتيجة للتوسيع الذي يحصل بسبب زيادة أفرادها بمرور الوقت ، وكانت القبيلة عادة تفاخر بكثرة عدد أفرادها ، وقد وصل الأمر ببعضهم حين يفاخرون في ذلك يضعون الأموات مع الأحياء⁽³⁾ ، كما جاء في كتاب الله العزيز : **الْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّىٰ رُزْئُمُ الْمَقَابِرِ** ⁽⁴⁾ ، والقبيلة هي منبع القيم الاجتماعية التي كانت سائدة في ذلك المجتمع لا الأسرة فالفرد لا يشعر بولاء مطلق لأسرته فقط وإنما لقبيلته في المقام الأول لأنها تقدم له المأوى والطمأنينة والحماية وتذود عنه في الشدائد وهذا ما يلهمنا قوله تعالى : **يُبَصِّرُونَهُمْ يَوْمًا الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بَيْنَهُمْ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي ثُوَّبَيْهِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ** ⁽⁵⁾

وتنقسم القبيلة عادة إلى ثلاث طبقات اجتماعية :-
طبقة الأحرار : وهم أبناء القبيلة المنحدرون من أصل واحد يجمعهم الدم والنسب يتساون في الحقوق والواجبات وكانت لهم امتيازات كثيرة ويتفاوتون بهذه الامتيازات بحسب شرف البيت الذي ينتمون إليه⁽⁶⁾ ، والذين يتميزون بالمروءة ومتطلباتها والفروسيّة ، فالفرد جزء من القبيلة ينطوي تحت لوائها ويعيش لها كما صور لنا الشاعر ذلك بقوله :-

¹ (؟) سورة النساء ، من الآية : 1 .

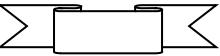
² (؟) سورة التوبه ، من الآية : 24 .

³ (؟) الطبراني ، تفسيره ، 30/283 ؛ النسفي ، أبي البركات عبد الله بن احمد بن محمود ، (ت 710هـ) ؛ تفسير النسفي ، (د.م-د.ت) ، 4/354 .

⁴ (؟) سورة التكاثر ، الآية : 2-1 .

⁵ (؟) سورة المعارج ، من الآية : 14-11 ، والفصيلة : هي العشيرة ؛ ينظر الطبراني ، تفسيره ، 75-29 .

⁶ (؟) العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ، 1/134 .



وهل أنا إلا من غزيه إن غوت غزية ارشد⁽¹⁾

والفرد الذي لا يجاري عرف القبيلة نبذه وأهدرت حقوقه وليس أمامه إلا اللجوء إلى قبيلة أخرى فيصبح مولى لها أو يتخذ الصحراء ملذاً له فيكون النهب والسلب وقطع الطرق وسيلة له ، وهم صعاليك العرب .

- **طبيعة الحلفاء :** وهم الذين لا يرتبطون مع القبيلة بروابط الدم أو النسب وإنما انظموا إليها لأسباب عديدة كزواجهم من القبيلة أو هروبهم من قبائلهم الأولى أو عن طريق ارتباطهم بالقبيلة عن طريق حلف أو معايدة أو اتفاق أو ميثاق حيث يضعون أنفسهم تحت حماية القبيلة وتكون هذه المواشيق والمعاهدات عادة غير مكتوبة⁽²⁾ ، ولكن القرآن الكريم قد تشدد على الالتزام بها ، كما في قوله تعالى : ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ . . .﴾⁽³⁾ . وقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيَثَاقَ﴾⁽⁴⁾ .

- **الطبقة الثالثة :** وهم طبقة العبيد في القبيلة وهم أدنى الطبقات في المجتمع القبلي وهم الذين يقومون بخدمة بيوت القبيلة وغالباً ما يكونوا من أسرى الحروب أو عن طريق الشراء من الأسواق أو من استقدامهم من الجبالة لهذا الغرض⁽⁵⁾ ، لقد حاول الإسلام دمج القبيلة في المجتمع الإسلامي الجديد فأقر القيم القبلية الأصيلة وشجع عليها والتي تتماشى مع مبادئ الشريعة الإسلامية السمحنة ، وهذب البعض الآخر من الأعراف والعادات والغى البعض الآخر التي تضر بالمجتمع ووحدته وبنعلمه الإسلام التي تدعوا إلى العدل والمساواة والأخوة وإحلال رابطة العقيدة بدلاً رابطة الدم كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ أَخْوَهُ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرَحَّمُونَ﴾⁽⁶⁾ .

¹ (?) أبو تمام الطائي ، حبيب بن أوس ، (ت 231هـ) ، ديوان الحماسة ، شرح : التبريري ، أبي بكر زكرياء يحيى على الخطيب ، تحقيق : محمد محي الدين ، مطبعة حجازي ، (القاهرة- د.ت) ، 1/29 .

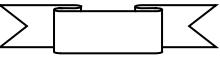
² (?) العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ، 134-1/135 .

³ (?) سورة النحل ، من الآية : 91 .

⁴ (?) سورة الرعد ، الآية : 20 .

⁵ (?) صالح احمد العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ، 1/35 .

⁶ (?) سورة الحجرات ، الآية : 10 .



لذلك فقد هاجم القرآن الكريم الأعراب الذين ظلوا متمسكين بحياة البداوة والثار وخشونة الطباع فاتهمهم بالنفاق وقلة الإيمان كما في قوله تعالى : **﴿الْأَغْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِيَقًا وَأَجْدَرُ أَلَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيهِمْ حَكِيمٌ﴾**⁽¹⁾

وقوله تعالى : **﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُوا بِمَا قُلُّوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْتَنَا وَلَمَّا يَذْهِلُ الْأَيْمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ . . .﴾**⁽²⁾

بينما امتدح القرآن المؤمنين منهم كما جاء في قوله تعالى : **﴿وَمِنَ الْأَغْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَنْهَا مَا يُنْفِقُ فُرَبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتٍ الرَّسُولِ . . .﴾**⁽³⁾ وترتبط أبناء العشيرة الواحدة رابطة العصبية للأهل والعشيرة وهي شعور بالتضامن والاندماج بين من تربطهم رابطة الدم وهي تدعوا إلى نصرة الفرد لأفراد قبيلته .

وشعارهم في ذلك **(انصر أخاك طالماً أو مظلوماً)**⁽⁴⁾ والذي استبدل الإسلام ألا تنصره إلا على الحق : **﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾**⁽⁵⁾.

وعن الرسول ﴿ قال : (انصر أخاك طالماً أو مظلوماً)

فتعجب المسلمين من ذلك لأنه شعار الجاهلية فسألوا الرسول : كيف تنصره طالما ؟ قال : **(تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره)**⁽⁶⁾ ، وقد ظل الاهتمام بالأنساب في المجتمع الإسلامي وقت على العناية به فقد روى عن الرسول ﴿ قوله : (تعلموا من النسب ما تعرفون به احسابكم وتصلون به أرحامكم)⁽⁷⁾ ، ومن لم يعرف الناس لم يعد من الناس⁽⁸⁾ ، وكان الرسول ﴿ نفسه عالماً بالأنساب ، وكذلك أبو بكر الصديق ﴿)، وشجع عمر بن الخطاب ﴿ على تعلم الأنساب أيضاً⁽⁹⁾ ، وقد أشار القرآن الكريم إلى قوة صلة الأرحام المتأتية من معرفة النسب

¹) سورة التوبه ، الآية : 97 .

²) سورة الحجرات ، من الآية : 14 .

³) سورة التوبه ، من الآية : 99 .

⁴) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، 3/40 .

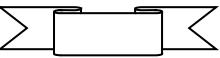
⁵) سورة الحج ، من الآية : 71 .

⁶) صحيح البخاري ، 6/2550 : الترمذى ، سنن الترمذى ، 4/523 .

⁷) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، (كتاب اليتيمة) ، 2/258 .

⁸) المصدو نفسيه ، 2/258 .

⁹) الهمданى ، الإكليل ، 167-1/166 .



كما في قوله تعالى : ﴿... وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ...﴾⁽¹⁾.

وأصبحت الأنساب أساس التنظيم المدني والاجتماعي في الأمسار العربية وعند العرب حتى من غير العرب اضطروا عند سكنائهم، الأمسار الانتساب إلى القبائل العربية باعتبارهم موالين⁽²⁾ ، ولكن تشجيع الرسول (ﷺ) على معرفة الأنساب لا للتفاخر والتفضيل والتقابل وإنما لتنقية الأنساب ولمواصلة ذوي الأرحام وخاصة الفقراء منهم كما في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ...﴾⁽³⁾.

لهذا نرى الإسلام حاول التخفيف من العصبية القبلية التي تؤدي إلى التقاتل والتناحر من أجل بناء المجتمع الإسلامي الجديد الذي يقوم على رابطة المودة والولاء للجماعة الإسلامية بدل الولاء لرابطة العصبية القبلية لذلك فان الإسلام حذر من مواصلة موالاة ذوي الأرحام من الكفار ، وقد تطاورت عدة آيات لإبراز المعنيين كما في قوله تعالى :

1- ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَغْدَاءَ فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبِحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ...﴾⁽⁴⁾

2- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلَيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُثْرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾⁽⁵⁾.

3- ﴿إِنَّمَا وَلِيْكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾⁽⁶⁾.

¹ (?) سورة النساء ، من الآية : 1.

² (?) صالح احمد العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ، 1/129 .

³ (?) سورة الحجرات ، من الآية : 11 ، وكما في الآية 13 من نفس

السورة

(إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْقَاصُكُمْ) وقد ذكرناها .

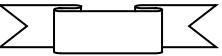
⁴ (?) سورة آل عمران ، من الآية : 103 ، وهنا إشارة للحروب بين

الاوسم والخرج ولنظام المواجهة :

ابن هشام ، السيرة ، ق 1/429 .

⁵ (?) سورة النساء ، الآية : 144 .

⁶ (?) سورة المائدة ، الآية : 55 .



وفي حديث عن الرسول (ﷺ) : (من قاتل تحت راية عمية يغضب للعصبية أو يدعوا إلى عصبية أو ينصر عصبية فقتل فقتلة جاهلية)⁽⁷⁾.

وقد أكد دستور المدينة أو كما عرف بالصحيفة التي نصت على أن السيادة للدولة وليس للقبيلة وان مجتمع الإسلام ليس مجتمع العصبية القبلية ، وإنما هو امة واحدة من دون الناس يكون الولاء فيه للدولة ولامة الإسلام وللمؤمنين وليس للكفار⁽²⁾ ، ويمكننا أن نميز خمسة أنواع من العصبية على ضوء ما جاء في القرآن الكريم وهي :-

أولاً :- عصبية الأقارب وذوي الأرحام :-

وهي أقرب أنواع العصبية في اللحمة الاجتماعية حيث كانوا أفراد العائلة أو الفخذ أو البطن أي أفراد الوحدة الاجتماعية الصغرى الذين تجمع بينهم الأرحام القريبة .
يتضامنون معاً كأفراد الأسرة الواحدة في الدفاع عن بعضهم أو الاستئثار لبعضهم في مختلف المواقف والمصالح حتى لو كان بينهم قطيعة .

وهي مصدر الترابط الوثيق بين أفراد القبيلة ومجتمعها⁽³⁾ ، وربما تكون قريبة إلى العشيرة وهي من المعاشرة في الأسرة الواحدة وان مجموع العشائر تكون القبيلة⁽⁴⁾ ، لذلك حين خاطب الله رسوله الكريم في كتابه العزيز وطلب منه أن يعرض الإسلام على أقربائه قال : ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾⁽⁵⁾ ، فجمع قريشاً فنادي أخاذها الأقرب فالاقرب فخذًا فخذًا وقال : يا بني عبد المطلب ، يا بني هاشم ، يا بني عبد مناف ، يا عباس عم النبي ، يا صفية عممة رسول الله ، وروي انه جمع بني عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلاً ، ولأن لعشيرته علاقات زواج بكافة عشائر مكة لذلك لم يكن بطن من بطون قريش إلا وبين رسول الله وبينهم قرابة⁽⁶⁾ .

⁷) مسلم ، صحيح ، 3/1478 ؛ البيهقي ، سنن البيهقي الكبرى ، 8/156 .

²) ابن إسحاق ، السيرة ، 348-2/350 .

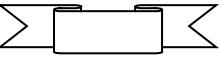
³) الشريفي ، مكة والمدينة ، ص 53 .

⁴) الهمداني ، الإكليل ، 1/26 ، 22 ؛ الزبيدي ، محمد مرتضى الحسيني ، تاج العروس ، تحقيق: إبراهيم التبريزى ، مطبعة الكويت ، (الكويت-1965) ، ج 3 ، ص 12 ، مادة (اسر) .

⁵) سورة الشعراء ، الآية : 214 .

⁶) ابن سعد ، الطبقات ، 1/200 ؛ الطبرى ، تفسيره ، 2/319 ؛

الزمخشري ، الكشاف ، 339-3/340 .



واهم مظاهر هذه العصبية التفاخر والثار وعصبية الأقارب وذوي الأرحام البعيدة ربما كانت أقوى من المعتقدات الدينية . وابرز مثال على ذلك وقوفبني هاشم يحمون النبي في مكة ضد بقية بطون قريش استجابة منهم لعصبة الرحم والقربي على الرغم من أن الكثيرون منهم كان على الشرك⁽¹⁾. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى : **﴿وَهُمْ يَنْهَاوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾**⁽²⁾ . وفي التقاليد العربية في الجاهلية وحتى بداية ظهور الإسلام التي تصور شدة العصبية وهي الثار ، وهو أن يكون للقتيل ولئه أو صاحب دم يثار له من غريميه ، وقد يكون من غير أبنائه أو إخوانه فقد يكون رئيس الأسرة⁽³⁾ ، وإذا عجز هؤلاء عن الثار كان أمراً مفروضاً على القبيلة ، وكان بعض أصحاب الدم لا يكتفون بالقصاص وإنما يتتجاوزوه ويسرفون به مما يؤدي إلى حروب وثارات كثيرة كما هي حروب الأوس والخزرج في يثرب⁽⁴⁾ ، لهذا حاول الإسلام الحد من هذه الحالة موضحاً أهمية حياة الإنسان التي حرم الله قتله موضعاً العبرة من القصاص حفاظاً لحياة الآخرين ، **﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أَوْلَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾**⁽⁵⁾ .

وقد جعل (ﷺ) لولي المقتول الحق بالقصاص ولكن دون إسراف : **﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلومًا فَقَدْ جَعَلَنَا لَوْلَيْهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾**⁽⁶⁾ .

وقد يلجأ أصحاب العقل إلى المفاوضات فيظهر ما يعرف **(بالعقل أو الدية)** إذا تم الصلح والكف عن الثار ، ويجمعون الدية من تركة القاتل أو من أقاربه وذوي رحمه مقابل الدم الذي أراقه لهذا تراهم جعلوا أنفسهم أحق الناس بدمه فتوزع عليهم ديته ، ووراثة من لا وارث له⁽⁷⁾ .

^¹ (؟) ابن هشام ، السيرة ، ق 350-1/351 .

^² (؟) سورة الأنعام ، الآية : 26 .

^³ (؟) الميداني ، أبو الفضل احمد بن محمد النيسابوري ، (ت 518هـ) ،

مجمع الأمثال ، (مصر-1353هـ) ، ج 1 ، ص 24-25 .

^⁴ (؟) السمهودي ، وفاء الوفا ، 215/1-220 .

^⁵ (؟) سورة البقرة ، الآية : 179 .

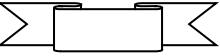
^⁶ (؟) سورة الإسراء ، الآية : 33 .

^⁷ (؟) المشهداني ، محمد جاسم حمادي ، الأنساب العربية ودورها في

تدوين تاريخ الأمة ، دار الشؤون الثقافية ، (بغداد-د.ت) ، ص 23 : خليف

يوسف ، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، دار

المعارف ، (مصر-1959) ، ص 8 .



ومن هنا جاء دعوى الرجال إلى اعتبار أنفسهم أصحاب الحق في الإرث دون النساء والأطفال لأنهم الغارمون ، حيث كانوا يقولون : **(أنورث أموالنا من لا يركب الفرس ولا يضر بالسيف ولا يسوق الغنم)**⁽¹⁾ .

وجعل (ﷺ) دية قتل الخطأ : **إِنَّمَا مَوْلَانَا مُؤْمِنٌ حَطَّا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ...**⁽²⁾

لقد أبقى الإسلام على رابطة العشيرة والأرحام فلم يمحها بل جعلها داخل النطاق العام لتركيبة المجتمع الإسلامي الجديد وأبقى على العشائر النفقات التي ليست ذات صبغة خاصة محسنة وخصوصاً دفع الديمة وفاء الأسرى ، وهذا ما جاء في كتابه العزيز وأكده عليه صحيفة المدينة ودستورها وكذلك أبقى الإسلام للعشيرة مسألة الولاء⁽³⁾ .

وقد جاء في السيرة أن الرسول (ﷺ) ذهب إلى يهودبني النضير طالباً منهم معاونته في دفع دية الرجلين اللذين قتلهمما عمرو بن أمية الصمراني في حادثة بئر معونة⁽⁴⁾ .

ويذكر أن الرسول (ﷺ) عندما فتح مكة أمر بقتل مقيس بن حُبابة لأنه قتل الانصاري الذي قتل أخيه خطأ بعد استسلامه ديته ورجوعه إلى قريش مشركاً⁽⁵⁾ .

وكذلك دعا الإسلام إلى موالة ومواصلة ذوي الأرحام من المسلمين ، وذلك لعظم مكانة الرحم عنده (ﷺ) وكذلك عظم مكانتها عند العرب ، فقد كان الرجل يسأل بالله وبالرحم⁽⁶⁾ ، كما في قوله تعالى : **وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَّقِيباً**⁽⁷⁾ .

وتؤكدأ كذلك جعل (ﷺ) لذوي القربي نصيباً معلوماً في الغنائم وهو خمس الغنيمة : **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَنْفِيْمُ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ هُمْ سَهْلُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى ...**⁽⁸⁾

وتؤكدأ لما ذكرناه عن تحذيره (ﷺ) للمؤمنين عن مواصلة ذوي القربي وذوي الأرحام من الكفار ومحاولة منه سبحانه وتعالى

¹ (?) السهيلي ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ، (ت 581هـ) ، الفرائض وشرح آيات الوصية ، ط 2 ، تحقيق : د. محمد إبراهيم البنا ، المكتبة الفيصلية ، (مكة المكرمة-1405هـ) ، ص 27.

² (?) سورة النساء ، من الآية : 92.

³ (?) ابن هشام ، السيرة ، ق 502-1/501.

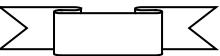
⁴ (?) ابن هشام ، السيرة ، ق 190/2؛ الواقدي ، المغازى ، 363-1/365.

⁵ (?) المصدري ، نفسه ، ق 4/410.

⁶ (?) الطبرى ، تفسيره ، 4/568.

⁷ (?) سورة النساء ، من الآية : 1.

⁸ (?) سورة الأنفال ، من الآية : 41.



بتحفيض هذه الصلة مع الكفار فقد ضرب لهم مثلاً النبي إبراهيم (ﷺ) والمؤمنين من قومه حين اعتزلوا قومهم وتبذلوا منهم لإصرارهم على الكفر⁽¹⁾ ، كما في قوله تعالى : **إِنَّمَا كَانَ لِلّٰهِي
وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُسْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَى
قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**⁽²⁾ .
**وَمَا كَانَ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَيِّهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ
وَعَدَهَا إِلَيْهِ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّٰهِ وَتَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ
لَأَوَّلُهُ حَلِيمٌ**⁽³⁾

وهنا صرخة قوية للمؤمنين بعدم الميل وإتباع الهوى لعصبية القريب وذوي الأرحام وخاصة في شهادة الحق ، حتى لو كانوا من فقراء وضعفاء المسلمين فحالق لا يعرف غني وفقير فقد يكون الغني هو صاحب الحق والفقير هو المعتمدي فالله أولى بهما⁽⁴⁾ ، كم في قوله تعالى : **إِنَّمَا أَيَّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كَوْنُوا قَوَّامِينَ
بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوْ الْوَالِدَيْنِ
وَالْأَقْرَبَيْنَ إِنْ يَكُنْ عَنْهُمَا أَوْ فَقِيرًا فَإِنَّ اللّٰهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا
تَبَيَّنُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللّٰهَ
كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَيِيرًا**⁽⁵⁾
وقوله تعالى : **إِنَّمَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى**⁽⁶⁾ ...

والعدل مبدأ ضروري دعا إليه الإسلام في القول والفعل⁽⁷⁾ ، وهكذا هو المؤمن عندما تقرن أقواله بأفعاله ليتم بناء المجتمع السليم ويستبق الأمان والاطمئنان.

وسئل رسول الله (ﷺ) : **(أَمْنِي العَصَبَيَّةِ أَنْ يُحِبَ الرَّجُلُ
قَوْمَهُ؟ قَالَ: لَا وَلَكِنَّ مِنَ الْعَصَبَيَّةِ أَنْ يُعِينَ الرَّجُلَ قَوْمَهُ
عَلَى الظُّلْمِ)**⁽⁸⁾

وقد واصل الإسلام دعوته على صلة الأقارب وذوي الأرحام من المسلمين كما في قوله تعالى : **وَإِذَا حَصَرَ الْقِسْمَةَ أَوْلُو**

¹ (؟) الطبرى ، تفسيره ، 44-11/43 .

² (؟) سورة التوبه ، الآية : 113 .

³ (؟) سورة التوبه ، الآية : 114 .

⁴ (؟) القرطبي ، تفسيره ، 5/413 .

⁵ (؟) سورة النساء ، الآية : 135 .

⁶ (؟) سورة الأنعام ، من الآية : 152 .

⁷ (؟) ابن كثير ، تفسيره ، 2/190 .

⁸ (؟) ابن ماجة ، سنن ابن ماجة ، 2/1302 .

**الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَإِنْ رُّفِهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا
لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا⁽¹⁾**

وهنا ترغيب منه (١) عند حضور ذوي القربى من غير الورثة أو العصبة أي ذوى الأرحام البعيدة ممن ليس لهم الحق في تركة وقسمة المتوفى ، بـأن يعطوا حتى ولو كان ما أعطوه قليلاً وإن يقال لهم قوله تعالى : **إِنَّا هُنَّ عَوْنَانٌ وَهَاجَرْنَا
وَحَاهَدْنَا مَعْكُمْ فَأَوْلَئِكَ مِنْكُمْ وَأَوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ⁽²⁾
أَوْلَى بِتَعْصِيمٍ**

**أَوْلَا يَأْتِلُ أَوْلُو الْفَصْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةُ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى
الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ ...⁽⁴⁾**

وكان سبب نزول الآية الأخيرة أن أبا بكر كان ينفق على ابن خالته مسطح وهو من فقراء المهاجرين ، وكان من المشاركيين في معركة بدر فلما كان له شأن في (حديث الإفك) غضب عليه واقسم أن لا ينفق عليه فنزلت هذه الآية تحثه على العفو عنه كما عفا عنه الله⁽⁵⁾.

ثانياً- عصبية القبيلة :-

كان أفراد القبيلة الواحدة يتقاتلون ويتصارعون وكذلك بطونها وعشائرها ضد القبائل الأخرى في الحروب والدماء والأخطار دفاعاً عن المصالح المشتركة ، ويتعاونون على المغامرات والديات⁽⁶⁾.

فهذه العصبية موروثة بين أشخاصها ، حيث يقدم الإنسان نفسه للموت في معركة من أجل شرف القبيلة وكرامتها ومن أجل الرباط المعروف اليوم برباط الدم⁽⁷⁾. وكل قبيلة متكاملة متراقبطة كالحلقة الواحدة المحكمة يحمي بعضها بعضاً ويكمel بعضها بعض ، وكانوا يتناصرون ظالمين ومظلومين ، وإن أي اعتداء يقع على أي فرد من القبيلة إنما واقع

^¹(?) سورة النساء ، الآية : 8 ؛ وقد ذكرنا العديد من الآيات في هذا المعنى في بداية الموضوع .

^²(?) القرطبي ، تفسير ، 5/49 ؛ النسفي ، تفسير النسفي ، 1/206 .

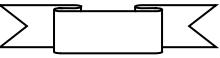
^³(?) سورة الأنفال ، من الآية : 75 .

^⁴(?) سورة التور ، من الآية : 22 .

^⁵(?) الطبرى ، تفسير ، 18/92 .

^⁶(?) الشريف ، مكة والمدينة ، ص 57 .

^⁷(?) أبو تمام الطائى ، ديوان الحماسة ، 1/43 ، 125-128 ، 195 .



على القبيلة كلها ومن واجبهم أن يدافعوا عنه وان يثأروا من المعتمدي ، وخاصة في حالة الحرب بين القبيلتين مهما كان الbaust ومهما كانت ميولهم وعواطفهم متغيرة⁽¹⁾ .

فقد قاتل الكثير من الاوس ممن كانوا على الشرك مع افراد قبيلتهم ممن دخل الإسلام ، عصبية لهم في الكثير من المعارك والحروب الإسلامية وربما كان المنافقون قد فعلوا ذلك للأسباب نفسها ، فالكثير من المنافقين اسلموا وخاصة من الخرج مسايرة لقومهم ولم يدخل الإيمان قلوبهم لهذا نرى مواقفهم المتذبذبة المتخاذلة من الإسلام والمسلمين فكانت قلوبهم وولاؤهم الطاهري للمسلمين وهناك عدة آيات تشير إلى هذه الحقيقة كما جاء في قوله تعالى :-

1- إِيَّا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا صَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أُفْ كَانُوا لَغْرِيَ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَأْتُوا وَمَا فُتُلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ...⁽²⁾

2- إِوْلَيَعْلَمُ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ اذْفَعُوا فَالَّذِينَ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّا تَبْغَنَاكُمْ ...⁽³⁾

وتذكر الروايات أن الآيتين نزلتا في زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول وقومه من المنافقين والآية الثانية نزلت عندما رجع عبد الله بن أبي في معركة أحد بثلث الجيش من الأنصار بما فيهم المنافقين والمؤمنين مما كان اعتذارهم وبريرهم لفعلهم إلا أنهم لم يتوقعوا أن يكون هناك قتال بين المسلمين والمشركيين⁽⁴⁾ .

وقد بلغت عصبية القبيلة إن احد المشركيين من الخرج قاتل مع قومه من المسلمين وقتل دون عشيرته في معركة أحد فقد جاء في السيرة إن رجلاً في الأنصار يسمى قzman قاتل قتالاً شديداً في معركة أحد حتى أثخن بالجراح وحين بشره أصحابه من المسلمين بالجنة ؟ كان جوابه: (بِمَاذَا أَبْشِرُ ؟ فَوَاللهِ إِنْ قاتلت إِلَّا عنْ قَوْمٍ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا قاتلت)⁽⁵⁾ .

¹) دروزة ، عصر النبي ، ص 165 .

²) سورة آل عمران ، من الآية : 156 .

³) سورة آل عمران ، من الآية : 167 .

⁴) الطبرى ، تفسير ، 4/490 ، 4/510 .

⁵) ابن هشام ، السيرة ، ق 2/88 .

لذلك فقد قال الرسول (ﷺ) فيه : **(إِنَّ اللَّهَ يُؤْيِدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ)**⁽¹⁾ ، و للأسباب نفسها كانت بعض بطون القبائل الضاربة حول المدينة ت يريد مسالمة المسلمين والدخول في عهدهم ، ولكنها تخرج لأن بقية البطون ضد المسلمين فلا يستطيع هؤلاء التحالف مع المسلمين ضد قومهم ولا يستطيعون التصامن مع قومهم ضد المسلمين لأن ميلهم للMuslimين⁽²⁾ ، كما جاء في قوله تعالى : **إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّنَّا سَاقُ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصَرْتُ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُعَاقِلُوكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَعَلَّهُمْ كُفَّارٌ وَلَوْ كُفَّارٌ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَإِنْ أَعْتَرُوكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا**⁽³⁾ .

وهذه الآية تشير إلى قوة المسلمين من جهة بحيث يخشى بأسمهم وتشير من ناحية أخرى إلى قوة العصبية القبلية . وقد أبقى الرسول (ﷺ) على وحدة القبائل العربية وأكرم وفودهم بعد فتح مكة وأبقى زعماءهم ورؤساء قبائلهم على ما كانوا عليه دون أن يتعرض لهم⁽⁴⁾ ، وكان يقول (**الناس معادن خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا**)⁽⁵⁾ .

ثالثاً- عصبية التحالف القبلي أو عصبية الأحزاب :-

وقد تنشأ هذه العصبية بين الأفراد المتحالفين ويشهر هذا الحلف ليكون معلوماً بين الناس ، وقد تتحالف القبائل أيضاً مع بعضها البعض ، وقد يأخذ الحلف شكلاً سياسياً أو اجتماعياً أو اقتصادي ، وأحياناً يعقد الحلف لأغراض هجومية أو دفاعية وقد يكون الحلف وقتياً ، وقد تسعي قبيلة لعقد حلف مع قبيلة أخرى لمساعدتها في صد غزو أو هجوم عليها⁽⁶⁾ ، أو الأخذ الثار من قبيلة أخرى وهذا النوع من الأحلاف يكون وقتياً ينتهي بانتهاء الغاية منه ، ومن المألوف أن يسعى الضعيف لعقد حلف ممن هم أقوى منه

¹ (?) ابن قتيبة ، المعارف ، ص 161 .

² (?) الطبرى ، تفسيره ، 202-5/199 .

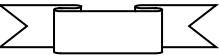
³ (?) سورة النساء ، الآية : 90 .

⁴ (?) ابن سعد ، الطبقات ، 291-1/359 .

⁵ (?) معمر بن راشد (ت 151هـ) ، الجامع ، ط 2 ، تحقيق: حبيب الاعظمي ، المكتب الإسلامي ،

(بيروت-1403هـ) ، ج 11 ، ص 316 .

⁶ (?) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، 1/310 ، وما بعدها (عن أيام العرب وفيه ذكر محالفات القبائل) .



وكان عدُّ كثيُرٍ من القبائل داخلاً في أحلاف ما عدا بعض القبائل القوية .

وتتميز هذه الأحلاف بقدسيتها لدى القبائل العربية⁽¹⁾ ، حيث كان العرب يوثقون أحلافهم عادة بالتصافح بالأكف والتحالف على النار والتعاقد على الملح وباليمين الغموس ، ويتم الحلف عادة بالقسم ليكتسب صفة القدسية وقد يصحبه لعق الدم ليعوض عن الدم الموروث⁽²⁾ ، وقد يغمس المتحالفون أيديهم في الطيب كما حدث في حلف المطبيين في مكة⁽³⁾ ، ونستطيع أن نستوضح ذلك من خلال قول الشاعر زهير بن أبي سلمى :

**ألا أبلغ الأحلاف عنِي رسالَةٌ وذبيان : هل
أقسمتكم كل مقسم⁽⁴⁾**

ويتخذ المتحالفون صيغة شكلية كلامية تسموا بالحلف ، كما حصل في بيعة العقبة الثانية عندما أراد أبو الهيثم بن التيهان أن يستوثق من الرسول⁽⁵⁾ عن عدم ترك الرسول الأنصار ورجوعه إلى مكة إذا ما أظهره الله بدين الإسلام ؟ فأجابه الرسول قائلاً : **(بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وانتم مني أحارب من حاربتم وأسلام من سالمتم)**⁽⁵⁾ ، وقد يتضمن أيضاً (ترثني وارثك وتطلب بي واطلب بك وتعقل عنِي واعقل عنك)⁽⁶⁾ ، ومن الأحلاف العربية الأخرى حلف الأحلاف ، وحلف الفضول⁽⁷⁾ ، وحلف الرباب⁽⁸⁾ ، وحلف الحمس بين قريش ، وخزاعة وكناة⁽⁹⁾ ، وقد ضرب العرب أروع الأمثلة في المحافظة على العهود والمواثيق ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا النوع من التحالف في أكثر من آية وصور قوة عصبية التحالف ، ومنها الحلف الذي كان بين اليهود والآوس

¹ (؟) الأصفهاني ، الأغاني ، 12/118 ، وما بعدها .

² (؟) المصدو ، نفسه ، 7/26 .

³ (؟) ابن هشام ، السيرة ، ق 130-1/132 .

⁴ (؟) زهير بن أبي سلمى ، ديوانه ، تقديم : كريم البستانى ، دار صادر ، (بيروت- د.ت) ، ص 81 .

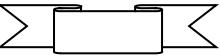
⁵ (؟) ابن هشام ، السيرة ، ق 1/442 ، والهدم بمعنى الحرمة أي ذمتى ذمتك ، هامش المصدو .

⁶ (؟) ابن دريد ، أبي بكر محمد بن الحسن ، (ت 321هـ) ، الاستفاق ، ط 2 ، تحقيق: عبد السلام هارون ، مكتبة المثنى ، (بغداد-1929) ، ص 305-304 .

⁷ (؟) ابن هشام ، السيرة ، ق 1/133 .

⁸ (؟) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، 5/141 ، 5 ، أسماء القبائل المشاركة في الحلف (ضبة ، عكل ، ثور ، وقين ، عدي) .

⁹ (؟) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، 1/359 .



والخزرج ، فريق من اليهود مع الاوس وفريق آخر مع الخزرج فيقاتل كل فريق مع حليفه في الحروب وما ترتب عليها من قتل اليهودي لأخيه أو أسره ومن ثم مفاداتاته وهذا محرم عليهم في شرعاهم .

وقد ندد القرآن الكريم بذلك: ﴿إِذَا أَخْذَنَا مِثَاقَكُمْ لَا يَسْفِكُونَ دَمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهُدُونَ إِنَّمَا تُؤْلِئِنَّ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهِرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْأَثْمِ وَالْعُدُوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أَسَارِيٌّ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ...﴾⁽¹⁾

وندد القرآن الكريم باستمرار التحالف بين اليهود ومنافقى المدينة على الرغم من خيانة اليهود ونقضهم لعهودهم مع رسول الله (ﷺ) ووعدوهم بالمناصرة^(*) ، ويبدو أن حلف اليهود مع الاوس والخزرج كان من العهود الطويلة الأمد حيث استمرت حتى بعد تأسيس دولة الإسلام في المدينة .

ويبدو لنا أن سبب اصطبار رسول (ﷺ) للجاج اليهود وإظهارهم للعداوة ، هو حلفهم مع الاوس والخزرج ، وكان بسبب الحلف بين الاوس واليهود من بني النضير ، أن حكم الرسول (ﷺ) فيهم حليفهم عبد الله بن أبي بن سلول الذي حكم بإجلائهم من المدينة فقط دون قتلهم أو أخذ أموالهم المنقوله⁽²⁾ ، فأخذ الرسول (ﷺ) بحكمه ، ولما حَكَمَ الرسول (ﷺ) سعد بن معاذ حليف قريطة في تقرير مصيرهم حكم بقتلهم وأخذ أموالهم جزاءً على خياتهم ، وقد أيد النبي هذا الحكم وقال لسعد هذا حكم الله⁽³⁾ .

وقد نهى (ﷺ) المسلمين من موالة الكافرين كما جاء على لسان نبيه :

1- إِلَّا يَتَّخِذَ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ ذُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاهَ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ تَفْسِهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾⁽⁴⁾ .

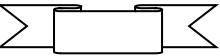
¹) سورة البقرة ، الآية : 84 ؛ ومن الآية : 85 ، من نفس السورة .

^{*}) وقصد هنا المنافقين وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول وقد ذكرنا ذلك ضمن موضوع الصراع مع اليهود من 120 وما بعدها وكما جاء في سورة آل عمران الآية : 118-120 ، وسورة المائدة : الآية : 151 ، وسورة الحشر الآية : 11 .

²) ابن هشام ، السيرة ، ق 191/2 ، الطبرى ، تاريخ ، 2/586 .

³) ابن هشام ، السيرة ، ق 240/2 .

⁴) سورة آل عمران ، الآية : 28 .



٢- ... وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَخْرَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ... ﴿١﴾

٣- هُوَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ
وَمِنَ الْأَخْرَابِ مَنْ يُنْكِرْ يَعْصُهُ ... ﴿٢﴾

٤- هُوَ لَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَخْرَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدْنَا
اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا
إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٣﴾

وكلمة الأحزاب تعني فرقاً أو طوائف أو قبائل متحزبة على أمرٍ ما كما في سورة هود والرعد وفي سورة الأحزاب إشارة صريحة قصد بها قريش والقبائل المتحالففة معها لغزو المدينة^(٤). والآيات المدنية التي ورد فيها الأحلاف والمواثيق والعهود والتي تشير إلى عصبية التحالف القبلي ضمناً وعن ضرورة حفظ هذه المواثيق والعهود وقد دستتها وقد جاء الكثير منها في القرآن ، منه قوله تعالى :

١- إِنَّ شَرَّ الظَّوَابِ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ هُوَ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ
فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥﴾

٢- إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا
أَسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ... ﴿٦﴾

ومن المعروف أن المعاهدات والأحلاف كانت لا تستمر إلا لمدة معينة وتنتهي بعد انتهاء أسبابها لكن هناك بعض الروايات تذكر أن بعض الأحلاف تستمر جيلاً بعد جيل ولا تنقض إلا بسبب أحداث جسيمة فتصبح بين القبائل المتحالففة صلة لاحمة متوازنة ، وعلى العموم نستطيع أن نقول إن عصبية التحالف القبلي ليست أصلية وإنما هي طارئة بخلاف عصبية الأقارب وذوي الأرحام وعصبية القبيلة فإنها أصلية تستمد وجودها من المصلحة الممتدة الطبيعية بين القبيلة الواحدة الذين يكونون في الغالب ذوي أرحام وقربى وقد تباعدت بعض التباعد مع انتسابهم إلى الجد الأعلى للقبيلة ثم بين العائلة الواحدة أو العشيرة الواحدة أو البطن الواحد التي تجمعهم صلة الدم والرحم^(٧) ، وهناك أيضاً حلف فردي بين شخص حر ينضم إلى إحدى القبائل وتكون صلة ليست مؤقتة

^١ (?) سورة هود ، من الآية : ١٧ .

^٢ (?) سورة الرعد ، من الآية : ٣٦ .

^٣ (?) سورة الأحزاب ، الآية : ٢٢ .

^٤ (?) ابن كثير ، تفسيره ، ٢/٤٤٠ ؛ دروزة ، عصر النبي ، ص ١٦٧ .

^٥ (?) سورة الأنفال ، الآية : ٥٦-٥٥ .

^٦ (?) سورة التوبة ، من الآية : ٧ .

^٧ (?) الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٦١ .

كالإجارة ، فالحليف يرث حليفه في الجاهلية وبداية الإسلام فقد كان له السدس من الإرث كما في قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيٍّ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدْنَا أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾⁽¹⁾

حتى نسخت بآيات الميراث ونقل من الإرث إلى الهبة : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْصُهُمْ أُولَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ... ﴾⁽²⁾

رابعاً- عصبية الولاء :-

عصبية الولاء نوعان مولى حلف أو مولى اصطناع ، وكان من عادات العرب أن يتحقق أحد أفراد القبيلة بشخص من قبيلة أخرى يكون أقوى منه فيتولاه فيصبح كأنه من ذوي رحمه وعليه المولا له وحينئذ يكون على الملتحق جميع تبعات عصبية الملتحق به الخاصة والعامة⁽³⁾.

ويتنسب المولى إلى قبيلة مولاه ، لذلك فأتنا نجد كتب الأنساب تؤكد على أن هذه النسبة المنسوب إليها الشخص الفلانى إلى القبيلة الفلانية من أنفسهم إذ كان من صلب القبيلة لا بالموالات ونجد في القائمة التي ذكرها ابن هشام⁽⁴⁾ فيمن استشهد من المهاجرين والأنصار في معركة بدر ومعركة أحد عدداً كبيراً من هؤلاء الحلفاء .

وقد جاء ذكر المولى في القرآن الكريم في أكثر من آية وبمعنى النصير أو الحليف كما في قوله تعالى : ﴿ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَصْرُرُهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَالُ الْبَعِيدُ يَدْعُو لَمَنْ صَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ تَفْعِيهِ لِيُئْسَنَ الْمَوْلَى وَلِيُئْسَنَ الْعَشِيرُ ﴾⁽⁵⁾

وقوله تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾⁽⁶⁾

¹ (?) سورة النساء ، الآية : 33 .

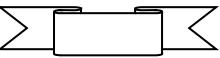
² (?) سورة الأنفال ، من الآية : 75 .

³ (?) حواد علي ، المفصل ، 4/366 .

⁴ (?) السيرة ، 706-1/706 ، وقد أورد قائمة بأسماء الشهداء من الأنصار والمهاجرين في معركة بدر ؛ وينظر ، المصدر نفسه ، ق 122-2/127 .

⁵ (?) سورة الحج ، الآية : 12-13 .

⁶ (?) سورة الحج ، من الآية : 78 .



وقوله تعالى : **إِذْلِكَ بَأْنَ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ
الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ**^(١) .
**إِنْ شُوَيْنَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهِرَا
عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجَبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ طَهِيرٌ**^(٢) .

والنوع الآخر من المولاية عندما يكون المولى من الرقيق أو أسير فتعتق رقبته ويحرر فيصبح مولى لمعتقه وله الخيار في أن يختار معتقه سيداً له أو غيره وعليه واجب مساعدة معتقه والدفاع عنه^(٣) .

وقد يقوم صاحب الولاء (**السيد**) بتبني المولى ويتخذه اباً ، وفي هذه الحالة يطبقون ما يطبق بالنسب أي لا يجوز للمعتق أن يتزوج من زوجة متبناه إذا طلقها أو مات عنها ، مثال ذلك إن (**زيد بن حارثة ، مولى رسول الله**) أي عتيقه^(٤) ، قام بتبنيه فكان يسمى زيد بن محمد وهذه الحالة كانت سائدة في المجتمع الجاهلي ومتصلة عندهم ، فلما جاء الإسلام نهى عن عملية التبني وأمر بنسبيتهم إلى

آبائهم ، لأن ذلك أعدل وأقسط عند الله كما في قوله تعالى : **وَمَا حَعَلَ أَذْعِيَاءُكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللهُ
يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ إِذْ عُوْهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ
أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي
الدِّينِ وَمَوَالِيْكُمْ ...**^(٥)

ولم تكن المولاية مقتصرة على الأفراد ، بل كثيراً ما يلتتحق بطن أو عائلة من قبيلة إلى قبيلة أخرى بل قد تلتتحق قبيلة بقبيلة أخرى عن طريق الولاء فيكون أفرادها (**موالي**) للقبيلة الجديدة فيقع عليها تبعية ما يقع على القبيلة الملتحق بها من حرب ودماء وعقل ومصالح ، ومثال ذلك ما كان بين الاوس والخرج واليهود فيبدو هنا أن الحلف بينهم أخذ هذا المعنى ، فعند ملاقة الرسول

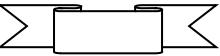
⁷ (?) سورة محمد ، الآية : 11 ، وبأتي المولى بمعنى الأقارب من العصبة لأن الموالي يصبح بمنزلة الأقارب ؛ ابن كثير ، تفسيره ، 4/132 .

² (?) سورة التحريم ، الآية : 4 ، والمقصود في هذه الآية زوجته حفصة وعائشة (رضي الله عنها) ، فقد مالت قلوبهما إلى محبة ما كرهه رسول الله (ﷺ) من تحريم لجارته مارية القبطية لإرضاء حفصة فعاتبها (ﷺ) على ذلك التحالف بينهما ؛ الطبرى ، تفسيره ، 28/161 - 162 .

³ (?) الشريف ، مكة والمدينة ، ص 48 .

⁴ (?) البخارى ، صحيح ، 5/82 .

⁵ (?) سورة الأحزاب ، الآية : 4 ومن الآية : 5 من نفس السورة .



(٤) رهط الخزرج أول مرة عند العقبة في مكة سألهم قائلاً :
(أمن موالي اليهود قالوا نعم)^(١) فسؤال الرسول (ﷺ) ،
 وأجابتهم بنعم دلالة واضحة على ذلك .

خامساً- عصبية الجوار :-

والجوار سنة من سنن العرب^(٢) ، وللجوار أهمية كبيرة لدى العرب قبل الإسلام وخاصة في المجتمع القبلي ، لأنه رمز الحماية والدعم لأولئك المخلوعين الذين طردتهم قبائلهم وإذا استجار شخص بشخص آخر أو قبيلة وقبل جاراً أو مستجيرًا وجبت حمايته وحق على المستجار الدفاع عن مجراه^(٣) ، لأن الاعتداء عليه يثير حفيظتهم كأنه اعتقد عليهم فإنهم كانوا يسارعون للذود عنه حتى الموت فإذا قتل المستجير قام حاميه ومجراه بدفع ديته إلى أهله^(٤) .

وجارك هو المستجير بك والمجير هو الذي يمنعك ويجررك وأجاره باللغة أنقذه من شيء أو ظلم يقع عليه^(٥) ، والعرب يسمون جارهم هديهم وهذّتهم حيث يحرم عليهم ما يحرم من الهدي أي القداسة^(٦) ، لقد كان العرب يحترمون قانون الجوار وبالمقابل فان على المستجير أن يراعي حرمة جاره وان يتلزم بالقيم والأعراف السائدة ولا يسقط حقه في الجوار ويتم خلعه . وقد كان للنساء حق الإجراء وتسمى المرأة التي تذهب بزوجها إلى قومها لتجيره بالسحوب^(٧) .

ولم يكن كل شخص يقبل أن يجير شخص آخر وكذلك بالنسبة إلى القبيلة ، فالناس يعرفون أقدارهم وقواهم فلا يورطون أنفسهم فيما لا قبل لهم فيه ، لأنهم كانوا يروا من ذمة الجوار أمراً خيراً .

وحقوق المجار المترتبة على قيام الجوار وتتلخص في قول هانئ بن مسعود الشيباني سيدبني شيبان حين أجار النعمان بن المنذر : **(قد لزمني ذمامك ، وأنا مانعك مما امنع منه)**

^١ (?) ابن هشام ، السيرة ، ق 1/428 .

^٢ (?) جواد علي ، المفصل ، 4/360 .

^٣ (?) الشريف ، مكة والمدينة ، ص 40 .

^٤ (?) يوسف خليف ، الشعراء الصعاليك ، ص 94 .

^٥ (?) الزبيدي ، تاج العروس ، 10/478 .

^٦ (?) يوسف خليف ، الشعراء الصعاليك ، ص 94 .

^٧ (?) ابن حبيب ، المحبر ، ص 434-433 .

نفسي وأهلي وولدي ، ما بقى من عشيرتي الأدرين رجل⁽¹⁾

والرسول (ﷺ) استجار بزعيم الاحابيش المطعم بن جبير بعد عودته من الطائف مخذولاً ، وبعد وفاة عمه أبي طالب وتخلّي عنه عمّه أبو لهب لدخول مكة وتبلغ دعوته⁽²⁾ .

ويذكر عن ذلك ابن هشام⁽³⁾ : لما انصرف رسول الله (ﷺ) عن أهل الطائف ولم يجربوه إلى ما دعاهم إليه من تصديقه ونصرته صار إلى حراء ثم بعث إلى الاخنس بن شريقي ليجيره ، فقال : أنا حليف والحليف لا يجير ، فبعث إلى سهيل بن عمرو فقال : إنبني عامر لا تجير علىبني كعب ، ثم بعث بعد ذلك إلى مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف فأجابه إلى ذلك ، ثم تسلح المطعم وأهل بيته ، وخرجوا حتى أتوا المسجد ثم بعث إلى رسول الله (ﷺ) أن ادخل فدخل رسول الله (ﷺ) فطاف بالبيت وصلّى عنده ثم انصرف إلى منزله دون أن يتعرض له أحد⁽⁴⁾ .

وقد وردت في القرآن الكريم آيات عديدة تذكر الإجارة والجوار كما جاء في قوله تعالى : **إِنَّ أَجَدُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِزْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ...**⁽⁵⁾

واشتهر أهل يثرب بالجوار إذ عرف بنو مرة بن مالك أحد بطون الاوس، بالجعايرة وذلك لأنهم كانوا يقولون للرجل إذا جاورهم (جعد - حيث شئت فانت آمن)⁽⁶⁾ ، أي اذهب حيث شئت ، وكذلك بنو غنم بن عوف وهم أحد بطون الخزر عرفوا بالقوابل (لأنهم كانوا إذا استجارهم رجل دفعوا له سهماً فقالوا له . قوله . قوبل بيثرب حيث شئت)⁽⁷⁾ .

وكذلك الإجارة بالنسبة إلى القبائل والعشائر والبطون ، ويمكن فسخ الجوار وعقد غيره في بنو معلا في يثرب قد فسخوا جوارهم معبني بياضة وعقدوا جواراً آخر مع زريق وبنو زاعوراء أيضاً تمعوا بجوار عبد الاشهل وكان يسمح لأفراد هاتين القبيلتين بالزواج فيما بينهم⁽⁸⁾ .

¹ (؟) الاصفهاني ، الأغاني ، 2/126 .

² (؟) ابن هشام ، السيرة ، ق 1/381 .

³ (؟) المصدو ، نفسه ، ق 1/380 .

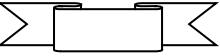
⁴ (؟) ابن هشام ، السيرة ، ق 1/380 .

⁵ (؟) سورة التوبه ، من الآية : 6 .

⁶ (؟) ابن دريد ، الاستفاق ، 2/437 .

⁷ (؟) المصدو ، نفسه ، 2/456 .

⁸ (؟) مونتجومري/وات ، محمد في المدينة ، ص 262 .



وكان من الأسباب لعقد الجوار في يثرب ، هو شيع استخدام الأطم^(*) لأسباب دفاعية ، وكان من الضروري استخدام عدد كبير من الرجال لبنيتها والإشراف عليها فكان لابد من انضمام جماعات صغيرة إلى جماعات أخرى لهذه الأغراض ، وكذلك للظروف الجغرافية والمادية تأثيرها القوي في عقد الجوار⁽¹⁾ .
وعند استعداد المشركين من قريش للخروج لحماية قافتهم من النبي (ﷺ) في معركة بدر ، وكان بين كنانة وقريش دماء فخشوا أن خرجنوا باغتتهم كنانة من خلفهم فتراء الشيطان لهم بصورة سراقة بن مالك وكان من زعماء كنانة فقال لهم : (أنا جاركم من كنانة فلن تروا منها ما تكرهون)⁽²⁾ ، فخرجوا فكانت واقعة بدر الكبرى .

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحادثة : ﴿وَإِذْ رَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَازُ لَكُمْ﴾⁽³⁾ .

وقد وردت في القرآن الكريم ثلاث آيات أخرى تحتوي معنى الإجارة ومشتقاتها موضحة على مقدراته (ﷺ) في الإجارة مصورة ع神性 إجارته التي لا تصاہيها إجارة كما في قوله تعالى :

1- ﴿فُلْ مَنْ يَدِهِ مَلْكُوتُ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ يُحِيرُ وَلَا يُجَاهِرُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾⁽⁴⁾

2- ﴿فُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعَيْ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُحِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾⁽⁵⁾

3- ﴿فُلْ إِنِّي لَنْ يُحِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَحِدَ مِنْ ذُو نِيْهِ مُلْتَحِداً﴾⁽⁶⁾.

سادساً= عصبية التقاليد :-

كان العرب يتعصبون لتقاليدهم وموروثهم من العادات والتقاليد تعصباً أعمى ويرون ذلك فضيلة ليس بعدها فضيلة وجزءاً مهماً من حياة المجتمع ، حتى ولو أدت إلى الحرب وإراقة الدماء والموافق المحرجة المهلكة ، وقد بلغ من قوة هذه العصبية

(*) سيأتي تعريفها في الصفحات التالية .

¹ (?) مونتجومري / وات ، محمد في المدينة ، ص 262 .

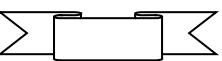
² (?) ابن هشام ، السيرة ، ق 610-1/612 .

³ (?) سورة الأنفال ، من الآية : 48 .

⁴ (?) سورة المؤمنون ، الآية : 88 .

⁵ (?) سورة الملك ، الآية : 28 .

⁶ (?) سورة الجن ، الآية : 22 .



ورسخها أنها أصبحت عندهم ديناً ويرون أن الأخذ بها من أمر الله⁽¹⁾ ، كما جاء في قوله تعالى : **إِنَّمَا قَالُوا بَلْ تَتَبَعُ مَا أَفْيَانَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلُو كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ**⁽²⁾ .
إِنَّمَا قَالُوا فَأَحِشْهَ قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمْرَنَا بِهَا...⁽³⁾

وهذه الآيات توضح موقف المشركين من قريش من الدعوة الإسلامية والتنديد بمواففهم المعادية وتصور شدة تمسكهم بهذه التقاليد كما في قوله تعالى : **إِنَّمَا قَالُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشَرَكَنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمَنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَبَعُونَ إِلَّا الطَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ**⁽⁴⁾ .

فعصبية التقاليد هي التي منعت عم الرسول (ﷺ) أبا طالب من إعلان إسلامه على الرغم من محبته للرسول ودفاعه عنه⁽⁵⁾ ، وما نجده في المجتمع المكي نجد صداح في مجتمع المدينة ، فالتقاليد واحدة والتعصب الأعمى لها واحد .

وكما نعلم أن من تقاليد المجتمع الجاهلي هو تحريم زواج زوجة الابن المتبنى سواء بعد طلاقه إليها أو وفاته ، حيث كان يعامل المتبنى كالابن بالنسبة ، وكان إلغاء هذا التقليد أمراً صعباً وعسيراً يحتاج إلى صبر وجرأة حتى حسم هذا الموضوع الوحي على لسان رسوله الكريم ممهداً لهذا الحدث ، كما في قوله تعالى : **إِنَّمَا كَانَ لِمُؤْمِنِينَ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا**⁽⁶⁾ .

¹) دروزة ، عصر النبي ، ص 178 .

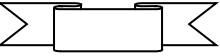
²) سورة البقرة ، الآية : 170 .

³) سورة الأعراف ، من الآية : 28 ، وينظر الطبرى ، تفسيره ، 12/379 .

⁴) سورة الأنعام ، الآية : 148 .

⁵) ابن هشام ، السيرة ، ق 1/147 .

⁶) سورة الأحزاب ، الآية : 36 .



فعند خطبة الرسول (ﷺ) لزيد بن حارثة متبناه زينب بنت جحش^(*) ، رفضت وتمنعت وقالت لا أرضاه لنفسي وأنا أيم قريش⁽¹⁾

فنزلت هذه الآية تحت على ضرورة الامتثال لأمر الله ورسوله ، لأن أمر الله يصدر عن حكمة لا يعلمها إلا الله ، فأراد (ﷺ) هذه الزيجة وما أعقبها من أحداث لكسر هذه التقاليد العمياء وان تكون سنة يُستثنى بها الناس وهو تحريم المتبني وبشرعية الزواج من زوجات ادعائهم بالتبني كما جاء في قوله تعالى : **﴿وَإِذْ تَفْعُلُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكٍ عَلَيْكَ رَوْجَكَ وَأَنِقَّ اللَّهَ وَتُحْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى رَبُّهُ مِنْهَا وَطَرَأَ رَوْجَنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرْجٌ فِي أَرْوَاجِ أَذْعَيَاهُمْ إِذَا قَصَّوْا مِنْهُنَّ وَطَرَأَ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾**⁽²⁾

فكان زواج الرسول الكريم(ﷺ) بأمر الله ومشيئته فجاءت هذه الآية لتبنيت فؤاد الرسول (ﷺ) للوقوف بوجه هذه التقاليد المغلوطة في قوله تعالى : **﴿مَا كَانَ مُحَمَّدُ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رَجَالِكُمْ وَلَكُنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّنَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾**⁽³⁾

والحدث الآخر هو قتال سرية عبد الله بن جحش في الأشهر الحرم ، عند مهاجمتها قافلة قريش حيث كانت مهمتها الاستطلاع كما أمر رسول الله (ﷺ) ، وقد استنكر المسلمين في المدينة ذلك وقد انتهت قريش هذه الفرصة في شن حرب إعلامية ضد الرسول وال المسلمين في المدينة بأنهم ينتهكون حرمة الأشهر الحرم بالقتال⁽⁴⁾ ، مع قدسيتها عند العرب قاطبة .

فنزل الوحي مجيباً عن هذا السؤال بقوله تعالى :

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ

(*) وهي زينب بنت رئاب بن جحش بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كثير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة وهي بنت عممة النبي (ﷺ) ، أمها أميمة بنت عبد المطلب ، وهي أول من مات من أزواجها بعد وفاته في خلافة عمر (ﷺ) . ينظر: ابن سعد ، الطبقات ، 101/8-103 ؛ ابن فتيبة ، المعارف ، ص 136 ؛ القرمانى ، أبي العباس احمد بن يوسف بن احمد الدمشقى ، أخبار الدول وأثار الأول في التاريخ ، مكتبة المتبنى ، (القاهرة- د.ت) ، ص 88 .

(?) ابن سعد ، الطبقات ، 101/8 .

(?) سورة الأحزاب ، الآية : 37 .

(?) سورة الأحزاب ، الآية : 40 .

(?) ابن هشام ، السيرة ، 601-1/602 ؛ الطبرى ، تاريخ ، 410-2/416 .

**كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفُرٌ بِهِ وَالْمَسِيحَادِ الْحَرامِ
وَأَخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْغِنْثَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ
وَلَا يَرَالُونَ يُقَاتِلُوكُمْ حَتَّىٰ يُرْدُوْكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِّي
أَسْتَطَاعُوا ...**⁽¹⁾

وقد وصف (ﷺ) المجاهدين في هذه السرية بقوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ**⁽²⁾.

الفصل الثاني العناصر السكانية في مجتمع المدينة القبلية والدينية

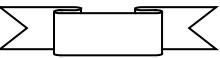
1- اليهود :-

كان اليهود عند هجرة الرسول (ﷺ) جاليات كبيرة العدد متعددة الفروع تصل إلى أكثر من عشرين بطناً كما ذكر السمهودي⁽³⁾ ، منتشرة في أماكن كثيرة من يثرب ، والطريق المؤدية إلى الشام .

¹ (?) سورة البقرة ، من الآية : 217 .

² (?) سورة البقرة ، الآية : 218 .

³ (?) وفاء الوفا ، 112-1/118 ، ومن هذه الفروع والبطون اليهودية بنو القصيص ، وبنو غصة ، وبنو مرید ، وبنو معاوية ، وبنو ماسكة ، وبنو محمّم (محمر) ، وبنو زاعورا ، وبنو عوف ، وبنو هدل (بهدل) ، وبنو زيد اللات ، وبنو حجر ، وبنو ثعلبة ، وبنو الشطيبة ، وبنو عكرمة ، وبنو مرایة .



وكانت القبائل اليهودية الرئيسة التي تتركز في يثرب هم ، بنو قينقاع ، والنضير ، وقريطة⁽¹⁾ ، وكانوا يعيشون حياة التكتمل والأحياء الخاصة ، بينما كانت البطون الصغيرة منهم منتشرة إلى جوارهم أو جوار البطون العربية في يثرب ، وقد أمدتنا السور المدنية بمعلومات وافية عن هذه الجماعات اليهودية ، وذلك بسبب موقفها المعادي للدعوة الإسلامية بعد هجرة الرسول (ﷺ) إلى المدينة وما كان بعد ذلك من احتكاك وتصادم بين الطرفين ، وقد وجه القرآن الكريم الخطاب لليهود بتعبير (بني إسرائيل) وقصد هنا النسب والديانة وهو لفظ يعني في العبرانيةبني عبد الله أو صفة الله ، وهي مركبة من أسرأ بمعنى عبد أو صفة ومن أيل وهو الله⁽²⁾ .

وقد خاطبهم القرآن وسماهم أيضاً اليهود نسبة إلى يهود بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم ، الذي استقر في ذريته الملك⁽³⁾ ، وقيل أن التسمية تعني الهوادة أي المودة أو التهود وهو التوبة⁽⁴⁾ ، وأراء أخرى هذه أهمها .

وخطبهم القرآن أيضاً بأهل الكتاب وهو التوراة التي أنزلت على موسى بن عمران (ﷺ) كما في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَخْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ... ﴾⁽⁵⁾ ، وهذه التسمية تشمل أهل الإنجيل النصاري أيضاً⁽⁶⁾ .

كما نهى القرآن عليهم ملك اليهود الأقدمين مع موسى والنبيين .

(عليهم السلام) من بعده ، وما كان منهم من تعجيز وإحراج وكفر وتکذیب وغدر ونقض للشرايع وتحريف الكلام عن مواضعه⁽⁷⁾ ، وقد وردت الكثير من الآيات القرآنية توضح تطرفهم في مختلف شؤون حياتهم ، فمن شدة تطرفهم جعلوا أنفسهم شعب الله

¹ (؟) ابن هشام ، السيرة ، ق 2/214 ، ق 1/501 ؛ الطبرى ، تفسيره ، 10/206

² (؟) طنطاوى ، د. محمد سعيد ، بنو إسرائيل في القرآن ، ط 2 ، (بيروت- 1973) ، ج 1 ، ص 6.

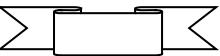
³ (؟) ابن كثير ، البداية والنهاية ، 1/194 .

⁴ (؟) اسود ، عبد الرزاق محمود ، المدخل إلى دراسة ، الأديان والمذاهب ، ط 1 ، دار العربية للموسوعات ، (بيروت-1981) ، ص 141 .

⁵ (؟) سورة الأنعام ، من الآية : 154 ؛ وينظر ابن كثير ، البداية والنهاية ، 2/147 .

⁶ (؟) الطبرى ، تفسيره ، 3/308 .

⁷ (؟) دروزة ، عصر النبي ، ص 105 .



المختار وأحباءه⁽¹⁾ ، وهم حين يضعون أنفسهم في هذه المكانة ليصرفوا الأنطارات عن فسادهم وذنوبهم ، كما جاء في قوله تعالى : ١- ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى تَحْنُ أَبْنَاءَ اللَّهِ وَأَجِبَّاً وَهُمْ قُلْ فَلَمْ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ لَتَّيْمُ بَشَرُ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مِنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾⁽²⁾

وكذلك تطرفهم في ادعائهم بأنهم لن تمسمهم النار إلا أياماً معدودات حيث يذكر علماء التفسير : (إن اليهود يقولون إن عمر هذه الدنيا سبعة آلاف سنة وإنما تعذب بكل ألف سنة يوماً من النار وإنما هي سبعة أيام معدودة)⁽³⁾ ، وأربعين يوماً وهي مدة عبادتهم العجل ، كما في قوله تعالى : ٢- ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمْسَأَ النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَحْذِثُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾⁽⁴⁾

وعن كفرهم ومجانبيهم الحق وقتلهم الأنبياء يقول (ﷺ) : ٣- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابِ الْيَمِّ﴾⁽⁵⁾

وقد لعنهم الله (ﷺ) على لسان أنبيائهم كما في قوله تعالى : ٤- ﴿لِعْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاؤَدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾⁽⁶⁾ . وقد تكررت لعنتهم في القرآن كما في قوله تعالى : ٥- ﴿فِيمَا تَقْصِهِمْ مِنَاقِبُهُمْ لَعَنَاهُمْ وَجَعَلْنَا فُلُوَّبَهُمْ قَاسِيَةً﴾⁽⁷⁾ ...

وقد وجه (ﷺ) خطابه إلىبني إسرائيل أو اليهود القدماء ومن بعدهم بسياق واحد وبصيغة المخاطب القريب مما يوضح الصلة اللاحمة النسبية بين هؤلاء وأولئك وربط ما بدا من أخلاق

¹ (?) الكتاب المقدس ، (العهد القديم) ، دار المشرق ، (بيروت- 1983م) ، سفر صموئيل الأول ، الإصلاح الخامس عشر ، الفقرة (5) ، وما بعدها .

² (?) سورة المائدة ، الآية : 18 .

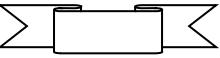
³ (?) الطبرى ، تفسيره ، 1/382 ; الزمخشري ، الكشاف ، 1/158 ، ابن كثير ، تفسيره ، 1/118 .

⁴ (?) سورة البقرة ، الآية : 80 .

⁵ (?) سورة آل عمران ، الآية : 21 .

⁶ (?) سورة المائدة ، الآية : 78 .

⁷ (?) سورة المائدة ، من الآية : 13 .



المعاصرين ومواقفهم هو امتداد لأُخْلَاقٍ وموافقِ الْأَقْدَمِينَ فَهِيَ تَصُورٌ عَنْ جَبْلَةٍ وَخَصَائِصٍ وَاحِدَةٍ⁽¹⁾.

6- إِنَّا بَنَى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ وَإِنَّا يَأْتِيَ فَارِزَهُونَ هـ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرِيْهِ وَلَا تَشْرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنَّا يَأْتِيَ فَالَّقُوْنِ⁽²⁾.

7- إِنَّا بَنَى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَإِنَّي فَصَلَّيْتُ عَلَى الْعَالَمِينَ هـ وَأَتَقْوُا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ⁽³⁾.

وقد جاء عند المفسرين أن التفضيل الذي يقصده القرآن ليس تفضيلهم على المؤمنين العاملين بشريعة الله بل كان تفضيلهم على أبناء عصرهم ، وخاصة فرعون وحاشيته⁽⁴⁾. ولم ترد إشارة صريحة في القرآن الكريم عن أصل هؤلاء وعن كيفية مجئهم إلى الحجاز ، ولكن توجيه الخطاب إلى يهود يثرب بتعبير (بني إسرائيل) بهذا الإطلاق والشمول دلالة على الصلة الوثيقة التي يجعلها القرآن بين القدماء والمعاصرين منهم مما يثبت بان اليهود في الحجاز هم طارون⁽⁵⁾ ، وإنهم إسرائيليون وأنهم ليسوا قبائل عربية اعتنقوا اليهودية كما يذكر بعض مؤرخي العرب من أن بني النضير فخذ من جذام وأنهم تهودوا ونزلوا بجبل يقال له النضير فتسموا به ، وكذلك بنو قريطة⁽⁶⁾.

بالإضافة إلى أن النسابين لم يذكروا هذه القبائل اليهودية في المدينة أو غيرها من مدن الحجاز ضمن الأنساب العربية⁽⁷⁾ ،

¹ (?) دروزة ، عصر النبي ، ص 105 .

² (?) سورة البقرة ، الآية : 40-41 ، وقد ورد ذكر بني إسرائيل في (43) آية من القرآن الكريم ومنها (18) آية مدنية ، ينظر محمد فؤاد ، المعجم المفهرس ، ص 41 .

³ (?) سورة البقرة ، الآية : 122-123 ؛ وينظر أيضًا سورة البقرة ، الآية : 47-48 .

⁴ (?) الطبرى ، تفسيره ، 1/265 ؛ ابن كثير ، تفسيره ، 1/88 ؛ طبارة ، عفيف عبد الفتاح ، اليهود في القرآن ، ط 5 ، دار العلم للملايين ، (بيروت-1977) ، ص 23 .

⁵ (?) دروزة ، عصر النبي ، ص 107 .

⁶ (?) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، 2/36 .

⁷ (?) ابن الكلبي ، جمهرة النسب ، مراجعة الكتاب من ص 1- إلى نهاية الكتاب ؛ الأصفهاني ، أبي فرج على بن الحسين (ت 356هـ) ، الأغاني ، المؤسسة المصرية العامة للنشر ، (مصر- د.ت) ، 3/116 ، الذي أكد على عدم ذكر النسابين العرب القبائل اليهودية في الحجاز والمدينة ضمن الأنساب العربية .

كما أن اليهود أنفسهم لم يحاولوا نسبة أنفسهم إلى القبائل العربية ، بل حرصوا على نسبة أنفسهم إلى بني إسرائيل ، وكان بنو قينقاع يدعون أنهم من ذرية يوسف الصديق⁽¹⁾ ، وهذا مع الاعتراف بأنهم الأساسية أحد الموجات السامية الذين هاجروا الجزيرة العربية (**العبرانيون**) وهم على الوثنية ولكنهم حين عادوا إلى المدينة كانوا يحملون الديانة اليهودية الموحدة⁽²⁾ .

واختلفت الروايات عن كيفية وصولهم إلى يثرب والتي تأثرت معظمها بالروايات اليهودية وإدعاءاتهم ، فيذكر أن موسى (ﷺ) كان قد جهز جيشاً كبيراً وأمرهم بقتل العماليق^(*) والقضاء عليهم جميعاً في الحجاز ، وقد فعلوا ذلك ولكنهم ابقوه على ابن ملك العماليق وكان غلاماً جميلاً فرحموه ورجعوا إلى بلاد الشام بعد وفاة موسى (ﷺ) ، وقد منعهم قومهم في دخول بلاد الشام لأنهم عصوا نبيهم بإيقائهم على هذا الغلام فرجعوا إلى مواطن العماليق الذين أبادوهم بيثرب ، واستوطنوها⁽³⁾ .

ويضيف ياقوت الحموي⁽⁴⁾ : أن بعض اليهود من بنى الكاهن بن هارون كانوا قد لحقوا بهم ، فكانت لهم الأموال والضياع بالسافلة أسفل المدينة ، ثم ظهر بعد ذلك الروم على بلاد الشام فقتلوا من بنى إسرائيل خلقاً كثيراً ، فخرج بنو قريطة والنمير وهدل هاربين من الشام يريدون الحجاز فسكنوا هناك مع إخوانهم من سباقهم إلى يثرب .

وقد استحوذ اليهود على معظم الأراضي الخصبة في يثرب وأصبحوا ذوي أموال طائلة ومزارع وبساتين ، وذلك لبراعتهم بالزراعة وال عمران ، وانحدارهم من بلاد الشام التي كانت موطنًا

¹ (?) السمهودي ، وفاء الوفا ، 1/115 .

² (?) سوسة ، احمد ، العرب واليهود في التاريخ ، ط 2 ، دار العربي ،

(مصر - 1972) ، المقدمة ، من

خ-خ-خ .

^{*} (*) العماليق : يذكر ابن إسحاق : أرسل الله هوداً إلى عاد ومنازلهم الأحقاف (الرمل فيما بين عمان إلى حضرموت باليمن ، وكانوا قد فشوا في الأرض كلها وقهروا أهلها بفضل قوتهم وكانتوا يعبدون ثلاثة أصنام فلما عصوا نبيهم وكذبوا وعتوا على أمر الله فامسك عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدوا ، فوجهوا إلى مكة رجال يستسقون لهم في الحرم طالبين من الله الفرج ، ولم تزل العرب تعظم موضع البيت وأهلة العماليق وسيدهم معاوية بن بكر ، وإنما سموا العماليق لأن أباهم عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح . ينظر: الطبرى ، تفسيره ، 218-8/217 ؛ ابن منظور ، لسان العرب ، 10/271 .

³ (?) الاصفهانى ، الاغانى ، 3/116 ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، 5/84 .

⁴ (?) معجم البلدان ، 5/84 .

للزراعة وال عمران⁽¹⁾ ، لهذا نراهم قد ابتنوا الاطام (**الحصون**) ، وسيلة لحماية أموالهم و تقوية مركزهم وإقرار هيبيتهم في نفوس العرب حيث يذكر السمهودي⁽²⁾ : أن آطام اليهود في يثرب بلغ تسعه وخمسين إطاماً.

وقد صور لنا القرآن الكريم قوة ومنعة اليهود و اطامهم ، ومدى غناهم وكثرة أموالهم ظانين أن حصونهم تمنعهم من طالبيهم ، كما جاء في قوله تعالى :

١- ﴿وَأَنْزَلَ اللَّذِينَ طَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَدَّفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّغْبَ فَرِيقًا تَفْتَلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَأْ وَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾⁽³⁾

٢- وَإِنَّ اللَّهَ ۚ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَسْرِ مَا طَئَشْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَلَّلُوا أَنْهُمْ مَا يَعْتَهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَّفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّغْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاغْتَرَبُوا يَا أَوْلَى الْأَبْصَارِ﴾⁽⁴⁾

٣- وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَفَاءَ بِأَمْوَالِهِمْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ⁽⁵⁾ ، لِأَنَّ
إِنَّمَا قَطَّعْتُمْ مِنْ لِيَّنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا فَإِنَّمَّا عَلَى أَصْوَلَهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِي الْفَاسِقِينَ ۝ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فِيمَا أَوْحَيْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَرَكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَيْهِ مِنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقَرْبَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ...﴾⁽⁶⁾

¹ (?) فيليب حتى ، تاريخ العرب ، 147-1/146 .

² (?) وفاة الوفا ، 1/116 ; دروزة ، ص 113-114 .

³ (?) سورة الأحزاب ، الآية : 26-27 ; وصياصيهم حصونهم والمعنيون

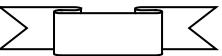
هنا يهود بنو قريطة وكانوا يسكنون المدينة وأربابها ؛ الطبرى ، تفسيره ، 21/149 .

⁴ (?) سورة الحشر ، الآية : 2 .

⁵ (?) وعن أموال اليهود التي غنمتها المسلمين من بنو النضير ؛ ينظر

اليعقوبي ، تاريخ العياقوبي ، 2/26 .

⁶ (?) سورة الحشر ، الآية : 5 ومن الآية : 7 .



4- وقد وصفهم القرآن بالجبن وعدم الجرأة في قتال المسلمين وجهاً لوجه فهم : ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرْبَ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْتَهُمْ شَدِيدُ...﴾⁽¹⁾

ولم يكن كل اليهود زراع ، فقد برعوا أيضاً في التجارة ، وبرعوا في الصناعة وخاصة السلاح منها والحدادة ، والصياغة⁽²⁾. وقد مارس اليهود المدينة الربا بشكل واسع ، ومما ساعدتهم على ذلك كون مجتمع المدينة زراعياً يحتاج فيه المزارعون إلى المال حتى يحين الحصاد .

وقد جنى اليهود عن هذا الطريق أموالاً كثيرة بالباطل ، كما في قوله تعالى : ﴿فَيُظْلِمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمَنَا عَلَيْهِمْ طَبَابَاتٍ أَحْلَتْ لَهُمْ وَبَصَدَهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۚ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلَهُمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَغْنَدُنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾⁽³⁾ . أما لغة اليهود في يثرب ، على الرغم من كونها عبرانية ومن أصول سامية إلا أنهم كانوا يتكلمون العربية تشوبيها الرطانة العبرية⁽⁴⁾ .

وبسبب اندماجهم مع العرب في نمط حياتهم الاجتماعية والسياسية وصنفو أنفسهم أيضاً إلى قبائل وبطون شأنهم شأن يقية شعوب شبه الجزيرة العربية التي اتخذت النظام القبلي أساساً لحياتهم الاجتماعية⁽⁵⁾ ، وقد دخل هؤلاء في محالفات مع الاوس والخرج الوثنين على الرغم من كونهم أصحاب كتاب ، فكان بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء الخرج ، أما بنو قريطة فكانوا حلفاء الاوس ، فإذا نشب الحرب بين الاوس والخرج قاتل اليهود معهم كل مع حليفه ، وقد يقتل اليهودي أخيه اليهودي من الفريق الآخر ، ويخرجونهم من بيوتهم وينهبون دورهم وان كان ذلك محرم في ملتهم ، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفkoوا الاسارى من الفريق غالب عملاً بحكم التوراة⁽⁶⁾ ، كما جاء في قوله تعالى :

¹) سورة الحشر ، من الآية : 14 .

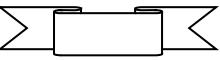
²) ينظر الطبرى ، تاريخ ، 2/481 ؛ يوجد إشارة من خلال عنائمه المسلمين عند إجلاء اليهود بنى قينقاع ، حيث غنم المسلمون أموالهم وسلاحهم والله صياغتهم : الحوفي ، احمد محمد ، الحياة العربية في الشعر الجاهلى ، مكتبة النهضة ، (مصر-1962) ، ص136 ؛ سيديو ، تاريخ العرب ، ص29 .

³) سورة النساء ، الآية : 160-161 .

⁴) المقرىزى ، إمتاع الأسماع ، 1/187 .

⁵) جواد علي ، المفصل ، 1/630 .

⁶) ابن كثير ، تفسيره ، 1/120 .



إِنَّفَسَكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَفَرْزُتُمْ وَأَنْتُمْ تَشَهُّدُونَ إِنَّمَا تُؤْمِنُمْ
هُوَلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفَسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّنْ
دِيَارِهِمْ تَظَاهِرُونَ عَلَيْهِمْ بِالآثَمِ وَالْعُدُوانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ
أَسَارَى تُغَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ
بِتَعْصِيمِ الْكِتَابِ وَتَكْفِرُونَ بِتَعْصِيمِ فَمَا حَرَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ
مِنْكُمْ إِلَّا خِرْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَبِوَمِ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى
أَشَدِ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ يَعْلَمُ عَمَّا تَعْمَلُونَ⁽¹⁾.

ونستطيع أن نلخص هذه المحالفات من خلال دستور أو صحيفة المدينة حيث الحق رسول الله (ﷺ) بطون اليهود بالبطون العربية المحالفه لها من الاوس والخرج⁽²⁾.

وقد ظلت هذه المحالفات سارية إلى ما بعد الهجرة⁽³⁾ ، وجاء انعكاسها في قوله تعالى : **أَلْمَّ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا
يَقُولُونَ لِأَخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ
أَخْرَجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطْلِعُ فِيْكُمْ أَهَدًا وَإِنْ
قُوَّلَتُمْ لَتَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشَهُدُ إِنَّهُمْ
لَكَاذِبُونَ⁽⁴⁾**.

حيث تشير هذه الآية إلى العلاقة التي كانت قائمة بين عبد الله بن أبي بن سلول وبينبني النمير ، فقد أرسل زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول الخرجي وديعة ومالك بن نوبل سراً إلى حلفائهم منبني النمير حين نزل بهم حكم رسول الله (ﷺ) بعد خيانتهم ونقضهم للعهد طالبين منهم أن يتباوا ويتمنعوا وإنهم سوف يعينوهم وفقاً للحلف الذي بينهم⁽⁵⁾ ، وكان اليهود يشيرون بين أهل المدينة وغيرها من المدن عن أنفسهم علماً واسعاً في الأديان والشريعات وأخبار الأمم وسنن الكون⁽⁶⁾ ، وكان لهم معابد تدعى بيت المدرّاس^(*) ، وأخبارهم وكان لأخبارهم وربانيتهم اثير كبير فيهم لأنهم معلمون وقضائهم كما هو واضح من الآيات القرآنية التالية :

¹) سورة البقرة ، الآية : 84-85 .

²) ابن هشام ، السيرة ، ق 501-1/504 .

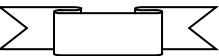
³) دروزة ، عصر النبي ، ص 110 .

⁴) سورة الحشر ، من الآية : 11 .

⁵) الطبرى ، تفسيره ، 45/28-46 .

⁶) ابن هشام ، السيرة ، ق 1/514 ; دروزة ، عصر النبي ، ص 108 .

(*) وهي مواضع يتدارسون فيها رجال الدين من اليهود أحکام شريعتهم وأيامهم الماضية وأخبار الرسل والأنبياء وما جاء في التوراة ، واللقطة مأخوذة من العبرية ، أي درس نصوص التوراة وشرحها وأيضاً غامضها . ينظر: جواد علي ، المفصل ، 55/6 .



١- ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَسْتَرُوا بِهِ ثُمَّا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبْتُ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾^(١).

٢- ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلٍ يَسْتَفِخُونَ عَلَى الدِّينِ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٢).

وهنا وصف لليهود وقصد بالكتاب هو القرآن الكريم الذي انزل على محمد (ﷺ) مصدقاً لما معهم من التوراة ، حيث كان الاوس والخرج قبل مجيء الإسلام كفاراً ، فكان اليهود يبشرون برسول يتبعونه ويقاتلون معه أهل الكفر قتال عاد وأرم وقصدوا بذلك الرسول (ﷺ) . فلما جاء كفروا به وجحدوه^(٣). وكان أخبارهم وربانيهم لا يقومون بواجباتهم في منع العامة عن ارتكاب الآثام والمنكرات ، بل ومنهم من كان يتخذ منصبه الديني وسيلة لجمع المال واكتناز الذهب والفضة ، كما توضحه هذه الآيات :

١- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاهَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَخْبَارُ بِمَا اسْتُخْفِطُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاء﴾^(٤).

٢- ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْأَثْمِ وَالْعُذُولَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْشِ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَوْلَا يَنْهَا هُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْأَثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْشِ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾^(٥).

٣- ﴿إِنَّا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانَ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِإِلْبَاطِلٍ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِرُونَ الْذَهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٦).

١) سورة البقرة ، الآية : ٧٩ .

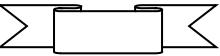
٢) سورة البقرة ، الآية : ٨٩ .

٣) ابن كثير ، تفسيره ، ١/١٢٤ .

٤) سورة المائدة ، من الآية : ٤٤ ؛ والربانيون : وهم العلماء العباد ، والأ hairy هم العلماء بما استودعوا من كتاب الله ؛ ينظر ابن كثير ، تفسيره ، ٢/٦٠ .

٥) سورة المائدة ، الآية : ٦٣-٦٢ ، والسحت : أي الحرام وهو الرشوة ؛ ينظر ابن كثير ، تفسيره ، ٢/٦٠ .

٦) سورة التوبه ، الآية : ٣٤ .



أما موقفهم من الدعوة الإسلامية ، فلم تكن علاقة اليهود مع المسلمين سيئة في الأيام الأولى من مجيء الرسول إلى يثرب . حيث رأى اليهود أن الإسلام دين اعترف بالأنبياء وانه دين توحيد وانه من جملة أحكامه قريب من أحكام ديانتهم وقولاً عدهم وانه يناهض الأوثان كما في قوله تعالى : **«قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»**⁽¹⁾

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحَ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ ...⁽²⁾

وقد أشار بفضلبني إسرائيل وبتفوقهم على غيرهم بظهور الأنبياء من بينهم ثم أن قبلتهم إلى بيت المقدس ، وقد تسماح الإسلام معهم وأباح للمسلمين طعام أهل الكتاب كما في قوله تعالى : **«الَّيْوَمَ أَجِلَّ لَكُمُ الظِّبَابُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا أَتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُخْصِنِينَ عَيْرَ مُسَافِحِينَ ...»**⁽³⁾ ، وخاصة أن الإسلام اعترف بأبوة النبي إبراهيم (ﷺ) للعرب وجعل سنته سنة لهم ، وقد تسماح الإسلام مع اليهود وحفظ ذممهم ، ولذلك عقدوا مع المسلمين عقد سياسي ووقفوا معه موقف ودي (وحادي) ، هو إعلان صحيفة المدينة⁽⁴⁾ ، وكان الرسول (ﷺ) وبعض الصحابة يتترددون إلى بيت مدراسهم لمناقشتهم في بعض أمور الدين وكذلك بعض اليهود أيضاً كانوا يراجعون الرسول (ﷺ) ويحتكمون إليه ، وذكر ابن هشام⁽⁵⁾ عن ابن إسحاق : أن اليهود حين اجتمعوا في بيته المدرس بسبب زنى رجل منهم بأمرأة في يهود قد أحصنت ، أرسلوهما إلى رسول الله (ﷺ) ليروا حكمه فيها ويمتحنوه فان حكم (بالتجبيه) وهي الجلد ، فهو ملك فيصدقونه ولا يخشوه ، وان حكم عليهم بالرجم فإنه النبي فعليهم أن يحذروه ويذبذبوه ، فلما أتواه وسألوه ، ذهب إلى بيت مدراسهم وسأل

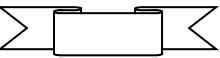
¹ (?) سورة البقرة ، الآية : 163 .

² (?) سورة النساء ، من الآية : 163 .

³ (?) سورة المائدة ، من الآية : 5 .

⁴ (?) السهيلي ، الروض الأنف ، 2/26 .

⁵ (?) السيرة ، 566-1/565 .



أحبارهم أن يأتوا بالتوراة ويتلوها ، فتلاها حبر لهم وقد أخفى بيده آية الرجم فضرب عبد الله بن سلام على يده ، ثم قال : هذه يا نبی اللہ آیة الرجم وسائلهم عن سبب عدم تحاکمهم إلى التوراة وفيها حکم الزنى بالرجم فقالوا : انه زنى منهم رجل من آل الملك فمنعهم الملك من الرجم ، وزنى بعد ذلك رجل من عامة الناس فأرادوا أن يترجموه فأعترض البعض ، فقرروا إمامته حکم الرجم وعدم العمل به وقررروا العمل بالتعجبه⁽¹⁾ ، فامر رسول الله (ﷺ) بترجمهما عند باب المسجد ، وقال : **(فَأَنَا أُولُو مِنْ أَهْلِ أَمْرِ اللَّهِ وَكِتَابِهِ وَعَمَلِ بِهِ)**⁽²⁾ ، كما في قوله تعالى : **إِنَّمَا يَنْهَا**
الرَّسُولُ لَا يَنْهَاكُ الدِّينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ
قَالُوا آمَنَّا بِآفَوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ فِلُوْبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا
سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ أَخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكُ
يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنَّا أَوْتَيْنَا هَذَا
فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاقْتُلُوهُ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَةً فَلَنْ
تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ...)⁽³⁾

ولما رأى اليهود دخول أهل يثرب في الإسلام أتوا جاؤه ودعوه المسلمين اليهود إلى الدخول فيه ، وبعد تحويل القبلة وتحريم الربا : رأى هؤلاء أن استمرار انتشار الإسلام سيكون خطراً على عقيدتهم التي ورثوها وان النبوة ابتدأت وانتهت في بني إسرائيل⁽⁴⁾

وقد صور لنا القرآن الكريم جدل اليهود وعنادهم مع الرسول الكريم (ﷺ) كما في قوله تعالى :-

1- إِنَّمَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُؤْمِنُ بِمَا
أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ...)⁽⁵⁾

2- وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ
مِلَّتُهُمْ ...)⁽⁶⁾

3- إِنَّمَا يَنْهَاكُ الدِّينَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ مَوَاضِعِهِ
وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ عَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَأَيْنَا
لَيْلًا بِالسِّيَّئِمْ وَطَغَنَا فِي الدِّينِ ...)⁽⁷⁾

⁽¹⁾ المصدري نفسه ، ق 1/566 .

⁽²⁾ المصدري نفسه ، 1/566 .

⁽³⁾ سورة المائدة ، من الآية : 41 .

⁽⁴⁾ ابن قيم الجوزية ، زاد المعاد ، 3/65 : جواد علي ، المفصل ، 6/545 .

⁽⁵⁾ سورة البقرة ، من الآية : 91 .

⁽⁶⁾ سورة البقرة ، من الآية : 120 .

⁽⁷⁾ سورة النساء ، من الآية : 46 .

ثم بدأت بعد ذلك مرحلة جديدة من الصراع والدس على الإسلام والمسلمين والتآمر عليهم فكان بعد ذلك الصدام المباشر بين الطرفين^(*).

لذلك فان القرآن الكريم قد حذر المسلمين والرسول (ﷺ) منهم ومن موالاتهم ومما يضمره اليهود للمسلمين من عذر وبغضاء . كما في قوله تعالى :-

- 1- ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُرِدُونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ ...﴾⁽¹⁾
- 2- ﴿إِيَّاهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَنْحِذُوا بِطَانَةً مِّنْ دُونَكُمْ لَا يَأْلوَنَكُمْ حَبَالًا وَدَوَا مَا عَنِّيهِمْ قَدْ يَدْتِبِّعُهُمْ أَكْبَرُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ يَبْيَأُ لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ هَا أَنَّمُّ أَوْلَئِكُمْ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلُّهُ وَإِذَا لَقُوا كُمْ فَالْوَا أَمْتَأْنَا وَإِذَا حَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمُ الْأَنَاءِ مِنَ الْغَيْظِ فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ إِنْ تَمْسِسُكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤُهُمْ وَإِنْ تُصِنِّكُمْ سَيِّئَةٌ يَغْرِحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَنْقُوا لَا يَصْرُكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾⁽²⁾
- 3- ﴿إِيَّاهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَنْحِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أُولَيَاءَ بَعْصُهُمْ أُولَيَاءَ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾⁽³⁾
- 4- ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمَّيْنَ سَبِيلٌ ...﴾⁽⁴⁾

ولكن على الرغم من ذلك كان من بين اليهود أفراد امنوا بالنبي محمد (ﷺ) أيماناً صادقاً لم تشهه أي مصالح دنيوية وشخصية ، و منهم عبد الله بن سلام وكان حبراً عالماً و قصة إسلامه تصور العقلية اليهودية وتجسد أخلاقيهم⁽⁵⁾ ، وكذلك إسلام مخيرق وكان

*) ينظر موضوع الصراع مع اليهود : الحوار الفكري والمواجهة العسكرية ، ص 117-124 .

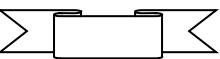
¹) سورة البقرة ، من الآية : 109 .

²) سورة آل عمران ، الآية : 118-120 ، والمقصود هنا اليهود ؛ ينظر دروزة ، عصر النبي ، ص 112 .

³) سورة المائدة ، الآية : 51 .

⁴) سورة آل عمران ، من الآية : 75 .

⁵) ابن هشام ، السيرة ، ق 516-1/517 .



حبراً وعالماً وقد اسلم وقاتل مع المسلمين في معركة أحد واستشهد وهو يقاتل المشركين وكان غنياً فعهد بأمواله إلى الرسول ⁽¹⁾ ، وكِيامِين بن يامِين ومِيمُون بن يامِن الْجَبَر ⁽²⁾ ، وقد صور القرآن الكريم إسلام هؤلاء كما في قوله تعالى : **إِنَّمَا سَوَاءٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَمْ أَهْلَ قَائِمَةٍ يَتَلَوَّنَ آيَاتِ اللَّهِ آتَاهُ اللَّيلَ وَهُمْ بِسَجْدَوْنَ إِنَّمَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأَوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ** ⁽³⁾ .

وكان إلى جانب هؤلاء اليهود الوافدين من خارج الجزيرة العربية هناك يهود من العرب اعتنقو اليهودية من حمير وكنانة ⁽⁴⁾ ، وبني الحارث ، وغسان ⁽⁵⁾ ، وبلي ، وقليل من الاوس والخرج ⁽⁶⁾ ، لأن اليهودية ديانة يكتنفها التعقيد لا تلائم روحية العرب وإنهم عنصريون يدعون أنهم جنس أرقى من بقية البشر وإنهم شعب الله المختار .

وتهديدهم لعرب يشرب بظهور نبي جديد من بني إسرائيل يقاتلون معه العرب فتكون السيادة لهم ، فكانت كل هذه الأسباب غير مشجعة على اعتناق اليهودية ويدرك الطبرى ⁽⁷⁾ ، مثلاً : أن المرأة التي كانت قليلة الولد تنذر أن عاش لها ولد تهوده . ويدرك أن كعب بن الأشرف من طيء ، من بني نبهان أتى أبوه المدينة بعد أن أصاب دماً فيهم ، فنزل على بني النضير فشرف فيهم ، فتزوج عقبة بنت أبي الحقيق فولد له كعب بن سعد بن اسود بن الأشرف ⁽⁸⁾ ، وكان شاس بن قيس بن عيادة بن زهير من أشراف الاوس في الجاهلية وقد تهود وكان رأساً فيهم ⁽⁹⁾ .

2- الاوس والخرج (الأنصار) :-

¹ (?) المصدو ، نفسه ، ق 1/518 .

² (?) ابن حجر ، الإصابة ، 3/49 .

³ (?) سورة آل عمران ، الآية : 114-113 .

⁴ (?) ابن إسحاق ، السيرة ، 2/359 ؛ السمهودي ، وفاء الوفا ، 1/279 . 280

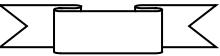
⁵ (?) ابن قتيبة ، المعارف ، ص 621 .

⁶ (?) ابن إسحاق ، السيرة ، 2/359 .

⁷ (?) تفسيره ، 3/14 .

⁸ (?) ابن الكلبي ، جمهرة النسب ، ص 636-637 ؛ ابن قتيبة ، المعارف ، ص 49 .

⁹ (?) ابن الكلبي ، جمهرة النسب ، ص 648 .



تتألف القبائل العربية التي كانت تسكن يثرب بصورة رئيسة من الاوس والخزرج وهم (ولد ثعلبة بن عمرو ومزيقاء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف ابن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الازد ، فولد ثعلبة بن عمرو ، حارثة فولد حارثة بن ثعلبة : **الاوسم والخزرج** ، وأمهما قبلة بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة ابن عمرو مزيقياء⁽¹⁾) ، وبرجع أهل الأنساب^(*) أصول هاتين القبيلتين إلى قبيلة الازد في اليمن⁽²⁾ .

وان سبب هجرتهم عن ارض اليمن هو انهدام سد مأرب بسبب السيل العرم كما جاء في قوله تعالى : **إِلَّا قَدْ كَانَ لِسَبَبِي
فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ حَتَّىٰنَ عَنْ يَمِينِ وَشَمَالِ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ
رَبِّكُمْ وَاسْكُرُوا لَهُ بَلْدَةً طَيِّبَةً وَرَبُّ عَفُورًا فَأَغْرَضُوا
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلًا
الْعَرِمِ...⁽³⁾**

وتذكر أسباب أخرى لهجرتهم من اليمن وهي اضطراب أحوال اليمن السياسية وكذلك الصراع على السلطة بين الأقبائل ، وتهديد الأحباش لليمن ، مما خلق إهمالاً لمشاريع الارواء وتصدع السد⁽⁴⁾ ، ثم ارتحلت القبائل اليمانية متفرقة في اتجاهات مختلفة ، فنزل منهم آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام ، ونزلت الاوس والخزرج يثرب ، ولم تذكر المصادر تاريخاً محدداً للهجرة ، إلا أن هجرتهم كانت حوالي منتصف القرن الثاني الميلادي أو بداية القرن الثالث الميلادي⁽⁵⁾ .

وعند وصول الاوس والخزرج إلى يثرب وجدوا اليهود حيث كانوا أقدم عهدهم في الاستقرار في يثرب مما اتاح لهم فرصة تملك أغني الأراضي الزراعية ، فنزل الاوس والخزرج حولهم وعاشوا في ضيق من العيش ، ويذكر السمهودي⁽⁶⁾ ، إن الاوس والخزرج سألوا اليهود عقداً جواراً أو حلفاً بينهم لكي يأمن بعضهم بعضاً ويمتنعون به ممن سواهم فتعاقدوا وتحالفوا ، مما اتاح لهم

¹ (?) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص 332.

² (*) ينظر تفصيل نسبهم وبطونهم ، ابن الكلبي ، جمهرة النسب ، ص 649-615.

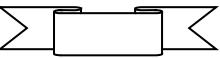
³ (?) ابن هشام ، السيرة ، ق 1/131.

⁴ (?) سورة سباء ، الآية : 15 ، ومن الآية : 16.

⁵ (?) الشريف ، مكة والمدينة ، ص 314.

⁶ (?) المصدو نفسه ، ص 315.

⁶ (?) وفاء الوفا ، 1/190.



أن يتعاملوا مع اليهود ويتشاركوا ويزداد عددهم وثروتهم ولما أحسن اليهود بذلك وتنبهوا ، أساءوا معاملتهم للعرب⁽¹⁾ ، فخشىهم الاوس والخزرج ، وتوجهوا إلى حليف قوي تربطهم معه رابطة النسب وهم الغساسنة في بلاد الشام وهم فرع من الأزد وأبناء عمومتهم⁽²⁾ .

وقد استجاب الغساسنة إلى نصرتهم^(*) ، واستطاع الاوس والخزرج التفوق على اليهود مما اضطرهم إلى طلب الصلح والدخول في حلف معهم ولكنهم التجئوا إلى طريقة جديدة لأضعاف الاوس والخزرج وذلك بزرع الشقاق وإثارة الفتنة والحروب بين الاوس والخزرج كما حصل في بعاث آخر حرب بين الاوس والخزرج قبيل هجرة رسول الله (ﷺ) بخمس سنين⁽³⁾ .

- وقد أشار القرآن إلى دور اليهود في إثارة الفتنة والحروب : -
1- في قوله تعالى : ﴿...وَالْقَيْنَانَ بَيْتَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسِّعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾⁽⁴⁾

2- ﴿وَاعْتَصَمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ حَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَادْكُرُوا نِعْمَاتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَغْدَاءَ فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَاصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَاعَ حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهَدُونَ﴾⁽⁵⁾

وهنا إشارة إلى الحروب التي كانت بين الاوس والخزرج فكان الإسلام سبباً في توحيد وتأليف قلوب الاوس والخزرج⁽⁶⁾ . كانت قبيلتنا الاوس والخزرج تنقسم كلا منها إلى خمسة بطون حتى بلغت البطون المعروفة أربعين بطناناً إلى جانب عشائر عربية أخرى ارتبطت معها برابطة الولاء⁽⁷⁾ .

^¹ (?) المصدري نفسه ، 1/190 .

^² (?) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، 1/402 .

^{*} (*) ويذكر أن دوافع الغساسنة كانت دوافع سياسية تهدف إلى القضاء على نفوذ اليهود بثرب ذات الموقع الاستراتيجي على طريق تجارتها ، وخاصة أن الغساسنة أنصار الروم المسيحيين أعداء اليهود . ينظر: حتى ، تاريخ العرب (ما قبل الإسلام) ، 1/146 .

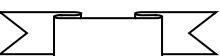
^³ (?) الذهبي ، تاريخ ، 170-1/171 .

^⁴ (?) سورة المائدة ، من الآية : 64 .

^⁵ (?) سورة آل عمران ، الآية : 103 .

^⁶ (?) الطبرى ، تفسيره ، 380/4-383 .

^⁷ (?) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، 346-377 .



فمن بطون الخرج الكبيرة بنو النجار : وهم أخوال عبد المطلب بن هاشم^(*) ومعهم أيضاً بنو مالك بن عدي بن النجار ، ومنهم بنو معاوية ومنهم بنو عبيد بن ثعلبة ، وبنو سواد بن غنم ، وكذلك بنو مبذول ، وبنو مازن ، وبنو دينار ، وبنو ساعدة وبنو كعب بن الخرج وبنو خدرة ، وبنو جشم وبنو حرام وبنو زيق ، وبنو سالم وبنو عمرو بن عوف⁽¹⁾.

أما أشهر بطون الاوس منهم بنو عبد الاشهل وبنو زعوراء وبنو حارثة وبنو ظفر وبنو خطمة ، وبنو حجبيا ، وبنو وافق⁽²⁾. أما عن الاسم الصريح للأوس والخرج فلم يرد في القرآن الكريم ، ولكنها (ﷺ) جمعهم تحت اسم واحد وهو الأنصار عند بيعة العقبة ، فيذكر الطبرى⁽³⁾ قائلاً : **(إِنْ هَذَا الْحَيُ الْمُبَايِعُ مِنْ يَثْرَبْ سَمُوا مِنَ السَّمَاءِ بِالْأَنْصَارِ)** ، كأنما أراد (ﷺ) أن يجمعهم بهذا الاسم ويؤلف بين قلوبهم ولم يسمهم بإسمهم الصريح ليبعدهم عن هذين الاسمين وتبعيتهما من سلسلة حروب دامية مؤلفة بين الطرفين ، إنها ولادة جديدة أرادها (ﷺ) الحي الجديد من المسلمين اسمه الأنصار ، وكما في قوله تعالى :

1- إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدُعُوكَ فَإِنَّهُ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِتَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ۝ وَالْفَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ حَمِيعًا مَا أَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ⁽⁴⁾.

2- إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَفُوا وَتَصَرَّفُوا أَوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلَائِهِ بَعْضٌ ...⁽⁵⁾.

3- إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَفُوا وَنَصَرُوا أَوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ⁽⁶⁾.

(*) ويدرك أن احية بن الجلاح بن الحريش الشاعر كان سيد الاوس في الجاهلية ، وكانت أم عبد المطلب بن هشام تحت احية وهي سلمى بنت عمرو ، ولها حديث في تزويجه إليها . ينظر: ابن الكلبي ، جمهرة النسب ، ص 628 .

(?) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص 346-377¹

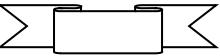
(?) المصدو نفسيه ، ص 332-346²

(?) تفسيره ، 28/92 : القرطبي ، تفسيره ، 18/89³

(?) سورة الأنفال ، الآية : 62-63⁴

(?) سورة الأنفال ، من الآية : 72⁵

(?) سورة الأنفال ، الآية : 74⁶



٤- ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ
وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِخْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا
عَنْهُ ...﴾⁽¹⁾

٥- ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ
الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَرِيدُ
فُلُوبَ قَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ بِهِمْ رَوُوفٌ
رَحِيمٌ﴾⁽²⁾.

وكان الاوس والخرج قد انتشروا بعد انصراف الغساسنة في عاليه المدينة وسافلها واتخذوا الأموال والاطام⁽³⁾ ، فسكت بطون الاوس المنطقة الجنوبية والشرقية وهي منطقة العوالى من يثرب ، أما بطون الخرج فسكتت المنطقة الوسطى والشمالية⁽⁴⁾.

وقد أشار القرآن الكريم لما لأهل المدينة من ثروات وأراضي خصبة ويمكن أن نستنتج ذلك من خلال بعض الآيات المدنية التي نزلت قبل فتح مكة⁽⁵⁾ :

١- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَبَابِ مَا كَسَبْتُمْ
وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ...﴾⁽⁶⁾

٢- ﴿قُلْ أَنْفَقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهًا لَنْ يُنَقِّيلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ
كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُغْبَلَ مِنْهُمْ
نَفَقَائِهِمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ
الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كَسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ
كَلَّرُهُونَ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أُولَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ
اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهِقَ أَنْفُسَهُمْ
وَهُمْ كَافِرُونَ﴾⁽⁷⁾.

وقد كان للعرب في المدينة الأطام والحسون كما كان لليهود لكن حسون اليهود كانت أقوى وأكثر⁽⁸⁾. كما في قوله تعالى : ...

¹) سورة التوبه ، من الآية : 100 .

²) سورة التوبه ، الآية : 117 .

³) السمهودي ، وفاء الوفا ، 1/190 .

⁴) السمهودي ، وفاء الوفا ، 192-1/190 .

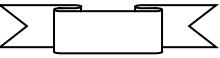
⁵) دروزة ، عصر النبي ، ص 31 .

⁶) سورة البقرة ، من الآية : 267 .

⁷) سورة التوبه ، الآية : 53-55 . وقد بهم في هذه الآية المنافقين

: ينظر ابن كثير ، تفسيره ، 2/362 .

⁸) دروزة ، عصر النبي ، ص 31 .



وَيَسْتَأْدِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ التَّيِّنَ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ...⁽¹⁾

وقد أمتازت الاوس والخرج بشجاعتهم ومحبتهم لله
رسوله وللمهاجرين⁽²⁾ ، وكان قد تمرسا في فنون الحرب والقتال وبرعا
فيه ، وشهد لهم

الرسول بذلك ليس فقط في الإسلام وإنما في جاهليتهم أيضاً ،
فيذكر صاحب العقد الفريد : أن الأنصار من الاوس والخرج كانوا
من أعز الناس نفساً وأشرفهم هما ، ولم يؤدوا إتاوة فقط في
الجاهلية إلى أحد من الملوك⁽³⁾ .

كما كان الأنصار أهل فصاحة وبلاهة ، وبراعة في الشعر حتى
أن الشعراء الثلاثة الذين كانوا يذودون في شعرهم عن الإسلام
وعن النبي (ﷺ) جميعهم من الأنصار⁽⁴⁾ ، ومنهم شاعر الرسول (ﷺ)
حسان بن ثابت بن المنذر بن النجار الخزرجي⁽⁵⁾ ، وكذلك عبد الله
بن رواحة الأنصاري الشاعر المشهور وكان كاتباً للنبي (ﷺ) وقد
شهد كثيراً من الغزوات وامتاز بشجاعته ، وكعب بن مالك ،
(الذي جاء ذكره في القرآن الكريم في سورة التوبية الآية : 118) ، وعلى الرغم من ذم القرآن للشعراء وخاصة
المشركين منهم ، وصور إتباعهم للشياطين والجن في مدحون قوماً
بالباطل ويذمون قوماً بالباطل .

ويذكر الطبرى⁽⁶⁾ : وقد انزل (ﷺ) استثناءً لشعراء رسول الله
(ﷺ) من هؤلاء الشعراء منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ،
كما في قوله تعالى : **وَالشَّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَافُونَ ۝ أَلَمْ تَرَ أَيْهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝ وَأَيْهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ۝ وَإِنَّصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا طَلِمُوا ...⁽⁷⁾**

¹ (?) سورة الأحزاب ن من الآية : 13 ، وقد أوضحتنا معنى الآية في موضوع غزوة الأحزاب والخندق.

² (?) ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الواحدى الشيباني ، (ت 630هـ) ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ، المطبعة الوهبيه ، (القاهرة-1280هـ) ، ج 1 ، ص 172 .

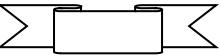
³ (?) ابن عبد ربه ، كتاب الياقوتة ، ص 61 .

⁴ (?) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ص 340 .

⁵ (?) محمد طاهر درويش ، حسان بن ثابت ، ص 100 .

⁶ (?) تفسيره ، 19/128 .

⁷ (?) سورة الشعراء ، من الآية 224- من الآية 227 ; وهي من الآيات المدنية في السور المكية ؛ ينظر القرآن الكريم.



وقد بربرت ظاهرة النفاق في مجتمع المدينة ، شأنه شأن المجتمعات الأخرى حيث لم يكن مثالياً لا يحتوي إلا الأخيار الأبرار ، وإنما كان فيه الأشرار أيضاً ، حيث يوجد الشر والخير ويوجد الصادق والكاذب والمرائي فيه .

ولذلك فان الاوس والخزرج لم يكونوا كلهم بمستوى واحد من الائمان والاخلاص ، وإنما كانت هناك جماعة منهم من عرف بقلة الائمان والنفاق ، وقد شخصهم الإسلام ونبذهم وذمهم في القرآن الكريم وأطلق عليهم تسمية المنافقين^(*) ، والمنافق عند المفسرين : (هو الذي يخالف قوله عمله ، وسره علانيته مخرجه)⁽¹⁾ ، كما في قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا يُحَادِثُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَحْدُثُونَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ إِنَّمَا قُلْوَبُهُمْ مَرْضٌ فَرَأَهُمُ اللَّهُ مَرْضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ إِنَّمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾⁽²⁾

ويرى القرطبي⁽³⁾ : أن المسلم حتى لو غلت عليه المعاصي لا يكون كافراً إلا إذا أثرت في اعتقاد القلب ، ويرى ابن كثير⁽⁴⁾ ، إن النفاق اكبر الذنوب ، لهذا نرى (﴿) يتوعدهم بأشد العقوبة كما في قوله تعالى : ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾⁽⁵⁾ .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾⁽⁶⁾ .

(*) والنفاق : هو من المصطلحات الإسلامية المحدثة المشتقة ، وهي تسمية تطلق على كل من تظاهر بالإسلام واستتر بالكفر ، والنفاق في اللغة مأخذ من نافق بناافق منافقه ونفاقاً وهو مأخذ من النفق وهو السرب في الأرض ، والذي يخلص إلى مكان آخر ويستتر فيه فالمنافق هو الذي يستتر كفره ويحفيه ، مثل البريء الذي يدخل نفقه فيستتر فيه كما في قوله تعالى في سورة الأنعام الآية : 35 : ((إِنْ أَسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ تَفْقَأَ فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ...)). ينظر: الجاحظ ، كتاب الحيوان ، 1/332 ؛ ابن منظور ، لسان العرب ، 6/4508 ؛ الزبيدي ، تاج العروس ، 6/430 .

¹ (؟) الطبرى ، تفسيره ، 1/103 ؛ ابن كثير ، تفسيره ، 1/45 ؛ القرطبي ، تفسيره ، 8/214 .

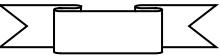
² (؟) سورة البقرة ، الآية : 10-8 .

³ (؟) تفسيره ، 8/214 .

⁴ (؟) تفسيره ، 1/45 .

⁵ (؟) سورة النساء ، الآية : 138 .

⁶ (؟) سورة النساء ، الآية : 145 ؛ ينظر ، محمد فؤاد ، المعجم المفهرس ، ص 809 ، وقد جمع آيات النفاق في هذه الصفحة .



وان هذه التسمية أطلقها القرآن الكريم على كل من يتصرف بهذه الصفات ونجدتها في ستة وثلاثين موضعاً من القرآن الكريم وكذلك وجود سورة سميت بـ(**المنافقون**) في القرآن الكريم ، وفي بعض الأحيان لم يصرح القرآن بهذه التسمية وإنما أشار إلى أعمالهم ، وهذا بحد ذاته يشكل دلالة واضحة إلى خطورة الدور الذي لعبه المنافقون في المجتمع المدني والذي اثر سلبياً في حياة المجتمع سواء سياسياً وعسكرياً واجتماعياً ، وهذه الظاهرة لم تظهر في مكة⁽¹⁾، وإنما ظهرت في مجتمع المدينة والمناطق المحيطة بها من (**الأعراب**) ، كما في قوله تعالى : ﴿وَمِنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَغْرَابِ مُتَّافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرْدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ تَحْنُ تَعْلَمُهُمْ...﴾⁽²⁾.

و خاصة بعد معركة بدر حيث أصبح المسلمون قوة محسوسة في المجتمع المدني .

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاوِونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ مُذَبِّحِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هُوَ لَاءٌ وَلَا إِلَى هُوَ لَاءٌ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سِبِيلًا﴾⁽³⁾.

والمافقون هم جماعة اظهروا الإسلام تقية ، وذلك لسرعة انتشار الإسلام في المدينة واعتناق أهلها له ، جعلت الكثير من مشركي يشرب يسارعون بالتأييد الظاهر للدعوة الإسلامية ويعملون في الخفاء بما فيهم بعض زعماء وسادات قومهم⁽⁴⁾. لهذا نرى قد اتبعهم الكثير من أبناء قومهم ، وكان على رأس هؤلاء زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي⁽⁵⁾. وكان المنافقون يكيدون للمسلمين ويتأمرون عليهم ويسيرون مِن المسلمين ورسولهم الكريم (ﷺ) كما في قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذِونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَدُنْ قُلْ أَدُنْ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ...﴾⁽⁶⁾.

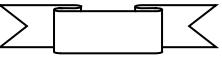
¹ (?) عبد الله خلف عبد حمد الحلبوسي ، المنافقون في عصر الرسالة ، ص 193.

² (?) سورة التوبة ، من الآية : 101 ، وأقاموا على نفاقهم ولم يتوبوا كما تاب الآخرون ؛ ينظر الطبرى ، تفسيره ، 11/9 .

³ (?) سورة النساء ، 143-142 .

⁴ (?) ابن حبيب ، المحبير ، ص 467 ، وقد أورد قائمة بأسمائهم .

⁵ (?) ابن هشام ، السيرة ، ق 584/1-585 .



وقد وجد المنافقون في اليهود خير عون ومساند لهم في تآمرهم على المسلمين حيث كان لليهود تأثير واضح على المنافقين ، وقد حاولوا تعزيز هذا الدور من خلال إسلام عدد من أحبائهم ينفّاقاً ، وقد أوضح القرآن الكريم هذه العلاقة في قوله تعالى : **إِنَّمَا تَرَىٰ إِلَيْهِ الَّذِينَ تَأْفِقُوا يَقُولُونَ لِإِخْرَاجِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لِئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَتَحْرُجُنَّ مَعَكُمْ وَلَا تُطِيعُ فِيهِمْ أَحَدًا إِنَّمَا قُوَّتُمْ لِتَنْصُرُنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشَهِّدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**⁽¹⁾ .

ولعب المنافقون دوراً خطيراً في مجابهتهم للدعوة الإسلامية ولاسيما موقفهم من غزوات النبي ﷺ حيث تخلف أكثر المنافقين عن هذه الغزوات وحاولوا إخراج موقف المسلمين وفي اخطر المعارك متذرعين بدعوى باطلة وواهية كما حصل في غزوة احد^(*) ، حين تخلى ابن سلول عن المعركة ورجع بثلث الجيش تاركاً الرسول وحده يواجه قريش ، أما الغزوات التي شاركوا فيها فقد كانت تغطية لتفاهمهم والحصول على الغنائم وقد صور في قوله : **إِنَّمَا يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا عُرُورًا**⁽²⁾ .

ويذكر أن هذه الآية كانت ردًا على المقوله التي قالها أحد المنافقين وهو مغيث بن بشير يوم الخندق بان محمدًا قد أوعدنا بفتح قصور فارس والروم واليمن ولا يتبرز احد إلى الخلاء من رحله ولله الغرور⁽³⁾ ، وأيدته على ذلك رهط من المنافقين، ولم يكتفى بذلك المنافقون بل كانوا يبحثون عن أي ثغرة للنجوز منها ، وحاولوا بكل الطرق إثارة الصراع القبلي وإثارة الأحقاد القديمة التي كانت بين الاوس والخرج.

وقد حاول عبد الله بن أبي بن سلول أن يشير حرباً بين الأنصار

والهجارين ، ليخرجهم من يثرب ، فيذكر ابن هشام⁽⁴⁾ أن اثنين من المسلمين أحدهم من بني غفار والآخر من الخرج تخاصما فيمن يرد الماء قبل الآخر من المريسع وهي ماء لقبيلة بني المصطلق ، فصرخ الأول يا عشر المهاجرين وصرخ الثاني يا

⁶(?) سورة التوبه ، في الآية : 61 : ينظر الفصل الخامس ، غزوه تبوك ص 133 .

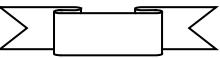
¹(?) سورة الحشر ، الآية : 11 .

²(*) انظر غزوة أحد في الباب السابق ، والآيات التي نزلت فيها ، ص 107 .

²(?) سورة الأحزاب ، الآية : 12 .

³(?) ابن هشام ، السيرة ، ق 2/246 .

⁴(?) السيرة ، ق 290-2/291 .



معشر الأنصار ، فغضب عبد الله بن أبي بن سلول واستغل هذه الحادثة وقال وعنه رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم فقال : **(أَوْقَدْ فَعَلُوهَا وَقَدْ نَافِرُونَا وَكَاثِرُونَا فِي بَلَادِنَا وَاللهُ مَا أَعْدَنَا وَحَلَّابِبَ قَرِيشٍ إِلَّا كَمَا قَالَ الْأُولُونَ ، سَمِنَ كُلُّكَ يَأْكُلُكَ ، آمَّا وَاللهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعْزَرَ مِنْهَا الْأَذْلَ)** .

ثم أقبل على من حضر من قومه ، فقال لهم : **(هَذَا مَا فَعَلْتُمْ بِأَنفُسِكُمْ ، أَحْلَلْتُمُوهُمْ بِلَادَكُمْ وَقَاسَمْتُمُوهُمْ أَمْوَالَكُمْ ، آمَّا وَاللهِ لَوْ أَمْسَكْتُمْ عَنْهُمْ مَا بِأَيْدِيكُمْ لَتَحْوِلُوا إِلَى غَيْرِ دَارِكُمْ)**⁽¹⁾ ، فلما وصل الخبر إلى رسول الله ﷺ وعنه عمر بن الخطاب ﷺ قال له : **أَمْرٌ بِقتْلِ أَبْنَى سَلَولٍ** فقال الرسول ﷺ **(فَكَيْفَ يَا عُمَرُ إِذَا تَحَدَّثُ النَّاسُ إِنَّ مُحَمَّداً يَقْتَلُ أَصْحَابَهُ لَا وَلَكُنْ أَذْنَ بِالرَّحِيلِ .**

وَلَمَّا عَادَ الرَّسُولُ إِلَى الْمَدِينَةِ مَشَى إِلَيْهِ أَبْنُ سَلَولٍ مَعْتَذِرًا وَحَلَفَ لَهُ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ⁽²⁾ ، وَقَدْ وَقَفَ أَسِيدُ بْنُ حَضِيرٍ بِجَانِبِ رَسُولِ اللَّهِ وَقَالَ لَهُ : فَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ تَخْرُجُهُ مِنْهَا إِنْ شَاءَتْ ، هُوَ الدَّلِيلُ وَأَنْتَ الْعَزِيزُ ثُمَّ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ارْفُقْ بِهِ ، فَوَاللهِ لَقَدْ جَاءَنَا اللَّهُ بِكَ وَإِنْ قَوْمَهُ لَيَنْظَمُونَ لَهُ الْخَرْزَ لِيَتَوَجُّوْهُ ، فَإِنَّهُ لَيَرِى أَنَّكَ قَدْ اسْتَلْبَيْتَهُ مَلْكًا⁽³⁾ .

ونزلت أثر ذلك السورة التي ذكر فيها المنافقين ومنهم عبد الله بن سلول ومن كان على مثل أمره واصفاً إياهم ، كما في قوله تعالى :-

- 1- ۝ وَطَائِقَةٌ قَدْ أَهْمَمُهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ بِاللَّهِ عَزِيزٌ**
الْحَقُّ طَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ... ۝⁽⁴⁾
- 2- ۝ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعْزَرَ مِنْهَا**
الْأَذْلَ ۝...⁽⁵⁾

وكان معظم المنافقين من الاوس والخرج لما يدخل الأيمان في قلوبهم لنزعتهم القبلية وعصبيتها وكذلك لحسدهم للرسول الكريم ﷺ القادر الغريب للمدينة الذي تزعمهم وكان له هذا

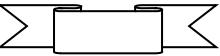
¹ (?) المصد، نفسه ، ق 291-2/292 .

² (?) المصدر نفسه ، ق 2/292 .

³ (?) المصدر نفسه ، ق 2/292 .

⁴ (?) سورة آل عمران ، من الآية : 154 ؛ ينظر الطبرى ، تفسيره ، 4/139-140 .

⁵ (?) سورة المنافقون من الآية : 8 ؛ وينظر الطبرى ، تفسيره ، 28/109 ، ويذكر أنها نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول في إحدى الغزوات .



النفوذ في المدينة ، وكما ذكرنا إنهم قبيل الهجرة كانوا يستعدون لتنصيب عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي ملكاً على يثرب⁽¹⁾ ، لهذا نرى أن معظم المنافقين كانوا من رهط عبد الله بن أبي بن سلول ولا يوجد بين الأوس إلا القليل بل أن ابن إسحاق⁽²⁾ ، يؤكّد عدم وجود منافق واحد منبني عبد الاشهل وهم من الأوس ، لأنّهم لم يكونوا مرتاحين لزعيم من الخزرج يكون ملكاً عليهم ، وكانوا يفضلون أن يحكمهم رجل محايي يجمع كلمتهم ويوحدهم . وبعد فشل كل محاولات المنافقين للإيقاع بين الأنصار والمهاجرين ، حاولوا بعد ذلك الطعن في بيت النبوة ، في زوجة الرسول (ﷺ) عائشة بنت أبي بكر الصديق (ﷺ) ، مستهدفين من وراء ذلك أغراض سياسية وهم يعلمون ويتقصدون إيذاء الرسول (ﷺ) فليس هناك أعز وأغلى من الشرف والعرض على العربي . فكان (حديث الافك)^(*) ، الذي لفظه المنافقون ، وتناقلته الألسن في المدينة .

وفي رواية عن السيدة عائشة : (مررنا بملأ من المنافقين ، وكانت من عادتهم أن ينزلوا منتبذين من الناس فقال عبد الله بن أبي رئيسهم : من هذه ؟ قالوا : عائشة وصفوان قال : والله ما نجت منه ولا نجا منها ، وقال : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ، ثم جاء يقودها⁽³⁾ ، كما في قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْأَفْكَرِ عُصْبَيْهُ مِنْكُمْ لَا تَحْسِبُوهُ شَرّاً لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْأَيْمَنِ وَالَّذِي تَهَوَّلِي كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ طَلَّقَ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ حَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْلُكُ مُبِينٌ**⁽⁴⁾ . وقد احتمل الرسول كل ما يصدر عنهم من إيذاء وعاملهم في الظاهر معاملة المسلمين ، وقد كفا الله المسلمين ورسولهم كيدهم وأمرهم بالصبر عليهم ، وقد صور القرآن الكريم خفايا نفوسهم المريضة بقوله تعالى : **إِنْ تُصِبِّكَ حَسَنَةٌ تَسْوُهُمْ وَإِنْ تُصِبِّكَ مُصِبَّةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلٍ وَيَتَوَلَّ**

¹ (?) ابن هشام ، السيرة ، ق 584-1/585 .

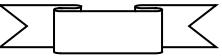
² (?) المصدو ، نفسه ، 3/606 .

^{*} (*) ينظر ابن هشام ، السيرة ، ق 297/2-307 : وقد أوردنا ذلك الحديث

ضمن موضوع الشورى في حكم الرسول ص 46 .

³ (?) الحلبي ، السيرة الحلبي ، 2/607 .

⁴ (?) سورة النور ، الآية : 12-11 .



**وَهُمْ فَرِحُونَ ۝ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ
مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلِيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝⁽¹⁾**
وقوله تعالى : **إِيَخْذُرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ
سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ
مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ۝⁽²⁾**

ولذلك نرى النبي (ﷺ) لم يسمع لرأي بعض الصحابة الذين أشاروا عليه بقتل المنافقين وعلى رأسهم زعيم المنافقين خوفاً من إثارة عصبية الخرج⁽³⁾ ، خصوصاً وان لهؤلاء أبناء وأخوة وأقارب مؤمنين وصادقين يقفون في صفه ويحاربون معه وزعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول ، كان قد احتفظ بزعامة قومه ، ولازال له دور مؤثر في قبيلته وعلى أتباعه من المنافقين وان قتلها سيولد ردة فعل عنيفة ، ويشعل نار العصبية من جديد ، وأثبتت الأيام نجاح سياسة الرسول اتجاه المنافقين وزعمائهم حتى اخذ قوم عبد الله بن أبي بن سلول بعد ذلك يؤبنونه وتندن مكانته في أعينهم ، وخاصة بعد أن شن القرآن الكريم حملة قوية ضدتهم كشف مؤامرتهم ودسائسهم ، فاصحأ حجتهم الواهية التي كانوا يعتذرون بها عند اعتذارهم من المسلمين ورسولهم الكريم (ﷺ) أو عند تخلفهم عن الغزو ، وخاصة بعد السنة التاسعة للهجرة وبعد نزول سورة براء⁽⁴⁾ بل أن القرآن طلب من الرسول والمسلمين أن يقفوا منهم موقفاً حازماً وطلب منه عدم الاستغفار لهم كما كان يفعل وخاصة بعد كشف مؤامرة محاولة اغتياله عند العقبة في غزوة تبوك⁽⁴⁾ :

- 1- ۝ لَا تَعْتَدُرُوا قَدْ كَفَرُتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ تَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ تُعَذَّبْ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ۝⁽⁵⁾**
- 2- ۝ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدُ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَا أَوْا هُمْ حَمَّنْ وَيُئْسِنَ الْمَصِيرُ ۝⁽⁶⁾**
- 3- ۝ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ... ۝⁽⁷⁾**

¹) سورة التوبه ، الآية : 51-50 .

²) سورة التوبه ، الآية : 64 .

³) ابن حجر ، الإصابة ، 1/150 ، 565-564 ، 2/366 .

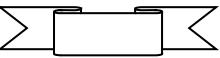
* وقد ذكرنا تلك الآيات والموافق في الباب الأول وخاصة في غزوة تبوك ، ص 133 .

⁴) المقرنزي ، أمتع الأسماء ، 1/479 ؛ ابن قتيبة ، المعارف ، ص 343 .

⁵) سورة التوبه ، الآية : 66 .

⁶) سورة التوبه ، الآية : 73 .

⁷) سورة التوبه ، من الآية : 80 .



٤- **إِفَانْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذُنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِي أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِي عَدُوًا إِنَّكُمْ رَضِيْتُمْ بِالْقُعُودِ أَوْلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْحَالِفِينَ^(١)**
 وقوله تعالى : **إِنَّمَا أَنْزَلْتُ سُورَةً أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنُكُمْ أَوْلَ الطُّولِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكْنُ مَعَ الْقَاعِدِينَ^(٢)**
 وكان ابن أبي من أولئك فنعي الله ذلك عليه وذكره منهم ^(٣) .
 ثم قال تعالى : **إِنَّمَا السَّيْلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكُمْ وَهُمْ أَعْنَيَاءُ رَصُوْنَا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ^(٤)**
وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقْمِ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَا ثُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ^(٥)

وتذكر الروايات أنها نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول عندما أرسلي إلى رسول الله (ﷺ) ليستغفر له ، ثم سأله ابن عبد الله بن أبي أن يعطيه رسول الله قميصه ليكشفه فيه ^(٦) .
 وقد صلى رسول الله (ﷺ) ومشى معه حتى قام على قبره .
 قال عمر بن الخطاب (ﷺ) فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآياتان : **وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ...**).
 فلم يصل رسول الله (ﷺ) بعدها على منافق حتى قبضه الله تعالى ^(٧) ، وبنى المنافقون مسجد الضرار والذي أمر رسول الله (ﷺ) بإحرارقه ، وفضح (ﷺ) نوايا المنافقين في بنائهم هذا المسجد .
 ويبدو لنا من آيات القرآن الكريم أن النفاق لم يكن مقتصرًا على الرجال بل شمل النساء أيضاً لكن لم تذكر لنا كتب التاريخ أسماء المنافقات كما ذكر أسماء المنافقين ، كما في قوله تعالى : **الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ...^(٨)**

^١) سورة التوبه ، الآية : 83 .

^٢) سورة التوبه ، الآية : 86 .

^٣) ابن هشام ، ق 553-2/552 .

^٤) سورة التوبه ، الآية : 93 .

^٥) سورة التوبه ، الآية : 84 .

^٦) الطبرى ، تفسيره ، 10/206 .

^٧) ابن هشام ، السيرة ، ق 2/552 .

^٨) سورة التوبه ، من الآية : 67 .

وكان لإخراج اليهود من المدينة اثر كبير في تخفيف شدة النفاق والمؤامرات فقد خسر المنافقون اكبر وأخيث أعواانهم ، فضلاً عن كشف القرآن الكريم لمؤامراتهم ، وموت زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول ، بعد فتح مكة ودخول الناس أفواجا في دين الإسلام .

3- المهاجرون من قريش والقبائل الأخرى :-

لقد بدأت هجرة المسلمين الأوائل من قريش وحلفائهم وموالיהם إلى المدينة قبل بيعة العقبة الكبرى بسنة تقريباً⁽¹⁾ ، كما ذكرنا في موضوع الهجرة ، لأن الدين أغلى من الوطن وخاصة عند تعرض الأيمان للخطر فأن ارض الله واسعة ، وخاصة بعد ازدياد أذى قريش للمسلمين وذلك لإيجاد ملجئ آمن للدعوة بعيد عن اضطهاد قريش ، وأيضاً من أجل بناء مجتمع جديد والتفرغ لنشر الدعوة ، وأصبحت الهجرة فرضاً على كل مسلم قادر أن يُسْهم في بناء هذا الوطن الجديد ، وترك الهجرة يُعدّ تقسيراً يسأل عنه (﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا إِنَّمَا فِيهِمْ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَحْسِنِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأَوْلَئِكَ مَا وَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾⁽³⁾

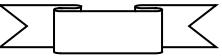
حاولت قريش بشتى الطرق منع الهجرة لأنها كانت تعى مخاطرها ، فحاولت منع الرسول ﷺ من الهجرة واللاحق بالمهاجرين ، خوفاً من أن يصبحوا قوة كبيرة تضر مصالحهم ، ولكن صدق إيمان المهاجرين الأوائل وقوة عزيمتهم أفشلت كل خطط وأساليب قريش وقصة هجرة أبي سلمة ومنعهم من هجرة زوجته ومن ثم لحقت به ومعها ابنها في حجرها دليل واضح على ذلك ، وقصة تعذيب قريش لبلال الحبشي وخباب وعمار فمن شدة تعذيبهم أمضوا ما أراد المشركون فأرسلوه بعد ذلك⁽⁴⁾ ، بعد أن ظنوا أنهم نالوا من إيمانهم ، كلها أمثله تدل على إصرارهم على اللحاق بإخوانهم المؤمنين فأنزل فيهم قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ

¹ (?) ابن سعد ، الطبقات ، 2/269 ، وقد سبقها هجرتان للحبشة ؛ ينظر ابن إسحاق ، السيرة ، 1/213-220 ، 2/321-346 .

² (?) القرطبي ، تفسير ، 5/346 .

³ (?) سورة النساء ، الآية : 97 .

⁴ (?) ابن شبة ، تاريخ المدينة ، 1/261 .



هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا طُلِمُوا لَتَبُوَّئُنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جُرْأَةً أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ⁽¹⁾ ، وكذلك قصة خروج صهيب بن سنان الرومي مهاجرًا إلى الله ورسوله ومحاولة قريش منعه وافتداه نفسه وهجرته بماله وأهله⁽²⁾ ، نزلت بحقه : **وَمَنْ أَنْتَ بِهِمْ بِلَهٌ إِنْ هُمْ بِرَبِّهِمْ بِغَافِلٍ**⁽³⁾ .

وبعد هجرة النبي (ﷺ) بدأت هجرة جماعية إلى المدينة فقد ذكر أن آل مظعون الجمعي وآل أبي البكير وخلفاءبني عدي وغيرهم كانوا من أسرع في الخروج إلى المدينة رجالاً ونساء ولم يبق بمكة منهم أحد حتى أغلقت دورهم ، ولكن الرسول واجه مشكلة توفير السكن والطعام لهؤلاء المهاجرين الذين تخلوا عن أموالهم وتركوها في مكة ، وقد لاقى هؤلاء الترحيب ومساعدة الأنصار الذين أنزلوهم في بعض دورهم حتى اختطفت دورهم⁽⁴⁾ ، وقادتهم طعامهم وشرابهم وقد أعطى الإسلام الهجرة مكانة عالية وشجع المسلمين وحثهم عليها :

وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغِمًا كَثِيرًا وَبِسْعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُذْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَّحِيمًا⁽⁵⁾ .

ذلك أن المؤمن الذي يفارق أرض الشرك وأهلها هرباً بدينه إلى أرض السلام وفي سبيل الله ودينه يجد سعةً في أمر دينه أي في ممارسة شعائره الدينية ، وقيل سعة في الرزق⁽⁶⁾ ، عن سبب نزول هذه الآية يذكر الطبرى⁽⁷⁾ في رواية عن سعيد بن جبير : أن رجلاً من خزاعة يقال له ضمرة بن العيص وقيل العيص بن ضمرة لما سمع أمره (ﷺ) بالهجرة وكان مريضاً أمر أهله أن يحملوه على سريره إلى رسول الله (ﷺ) ، ولكن أدركه الموت قبل إن يصل إلى المدينة ، فأنزل فيه (ﷺ) هذه الآية ، وقد نهى سبحانه وتعالى المسلمين من اتخاذ من لم يهاجر من المسلمين من مكة ممن لا

¹ (?) سورة النحل ، الآية : 41.

² (?) ابن هشام ، السيرة ، ق 468-1/480 وفيه أسماء المهاجرين والمهاجرات حسب تسلسلهم في الهجرة إلى المدينة ، ابن شبة ، تاريخ المدينة ، 1/261.

³ (?) سورة البقرة ، من الآية : 207.

⁴ (?) ابن هشام ، السيرة ، ق 470-1/474 ؛ ابن سعد ، الطبقات ، 3/389 ، 391-397.

⁵ (?) سورة النساء ، الآية : 100.

⁶ (?) الطبرى ، تفسيره ، 5/243.

⁷ (?) المصادر ، نفسه ، 5/244.

يمنعهم عائق للهجرة أولياء ما لم يهاجروا كما في قوله تعالى :
 ﴿وَذُو لَّوْ تَكُفِرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ بِسَوَاءٍ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أُولَيَاءَ حَتَّى يُهَا حِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...﴾⁽¹⁾

وقد شهد معظم المهاجرين الأوائل مع الرسول (ﷺ) بناء دولة الإسلام وشاركوا فيها وكذلك سائر المشاهد وقاتلوا بكل بسالة على الرغم من قتلهم ، وذلك لقوة إيمانهم وحبهم لله ورسوله⁽²⁾ ، لهذا اعتمد عليهم الرسول وأمرّهم على كثير من السرايا والبعوث⁽³⁾ ، وقد ذكر (ﷺ) هجرتهم وجهادهم وما خصهم به من اجر ودرجة عندهم (ﷺ) :-

1- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَحَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾⁽⁴⁾

2- ﴿... فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لِأَكْفَارَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَاذْخَلَنَّهُمْ حَيَّاتَنَّ تَبْرِي مِنْ تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ تَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ التَّوَابِ﴾⁽⁵⁾

3- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَحَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْصُهُمْ أُولَيَاءَ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَا حِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَا يُتَّهِمُ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَا حِرُوا وَإِنْ اسْتَئْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ التَّصْرِ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْتُكُمْ وَبَيْتُهُمْ مِيَمَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾⁽⁶⁾

4- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَحَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوْفُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾⁽⁷⁾

واستمرت هجرة المسلمين حيث يذكر الواقدي⁽⁸⁾ : أن في معركة بدر انحراف عدد من المسلمين الذين كانوا مع جيش

¹ (؟) سورة النساء ، من الآية : 89 .

² (؟) ابن سعد ، الطبقات ، 3/150 .

³ (؟) الواقدي ، المعاذري ، 19-1/1 .

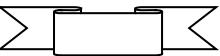
⁴ (؟) سورة البقرة ، الآية : 218 .

⁵ (؟) سورة آل عمران ، من الآية : 195 .

⁶ (؟) سورة الأنفال ، الآية : 72 .

⁷ (؟) سورة الأنفال ، الآية : 74 .

⁸ (؟) المعاذري ، 157-1/156 .



المشركين مخفين إسلامهم إلى جيش المسلمين ، وكذلك اسلم عدد من المشركين بعد المعركة ، وقد حرص رسول الله (ﷺ) على استقدام المهاجرين من المسلمين في الحبشة لما عهد فيهم من قوة إيمان وصبر وقد فرح فرحاً كبيراً بقدوم جعفر بن أبي طالب والمهاجرين من الحبشة على متن سفينتين^(١) .

وتتابعت الهجرات الفردية والجماعية ، فمن كان قد دخل المدينة له عريف نزل على عريفه ومن لم يكن له عريف نزل في الصفة ، وكان يوكل على كل رجل من العرب المهاجرين رجالاً من الأنصار يفقهه في أمور دينه ، ويقرئه القرآن^(٢) .

ولم تكن الهجرة مقتصرة فقط على الرجال فقد شملت النساء أيضاً كما في قوله تعالى : **إِيَّا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَرْجِعُنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ لِهِنْ لَهُمْ وَلَا هُنْ يَحْلُونَ لَهُنَّ وَأَنُوْهُمْ مَا أَنْفَقُوا ...**^(٣)

ويقال إن هذه الآية نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وكانت أول من هاجر في الهدنة عن صلح الحديبية وما فيها من شروط إرجاع من جاءه مسلماً بدون إذن وليه إلى قريش فلما قدمت على أخيها الوليد بن عتبة ففسخ الله العقد الذي بينه وبين المشركين في شأنها ، ثم انكحها رسول الله (ﷺ) زيد بن حارثة^(٤) ، لأن المسلمة لا تحل لمشرك ، وخلال المدة ما بين فتح خيبر وفتح مكة اسلم عدد من قريش وهاجروا إلى المدينة وكان منهم جماعة عرفوا باسم السبعين ، وكانت هجرتهم عام خيبر وسموا كذلك نسبة إلى عددهم الذي بلغ سبعين رجالاً جميعهم منبني عدي بن كعب^(٥) ، ولكن هؤلاء المهاجرين لم يقبلهم الرسول التزاماً بشروط صلح الحديبية وظلوا مدة خارج مجتمع المدينة ويقول ابن هشام^(٦) : إن أبا بصير وهو عتبة بن أبي سعيد بن جارية وكان فيمن حبس بمكة فلما قدم رسول الله (ﷺ) المدينة أرسلت قريش وفداً إلى الرسول (ﷺ) للمطالبة برده إلى مكة فقال الرسول لأبي بصير : **(إِنَّا قَدْ أَعْطَيْنَا هُؤُلَاءِ الْقَوْمَ مَا قَدْ عَلِمْتَ، وَلَا يَصْلَحُ لَنَا فِي دِينِنَا الْغَدَرُ، وَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لِكَ**

^١ (?) المصادر نفسه ، 3/818 .

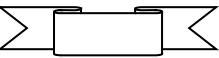
^٢ (?) ابن شبه ، تاريخ المدينة ، 1/264 .

^٣ (?) سورة الممتحنة ، من الآية : 10 .

^٤ (?) ابن شبه ، تاريخ المدينة ، 1/267 .

^٥ (?) ابن حجر ، الإصابة ، 1/285 ، 1/285 ، 409-3/411 .

^٦ (?) السيرة ، ق 2/323 .



ولمن معك من المستضعفين فرحاً ومخرجاً فانطلق إلى قومك ، قال : يا رسول الله أتردني إلى المشركين يفتنوني في ديني ؟ ، فانطلق أبو بصير مع اثنين من موكليه لإعادته إلى قريش ولكن أبو بصير قتل أحدهم وهرب الآخر ثم خرج أبو بصير حتى نزل العيص من ناحية ذي المروءة خارج المدينة على ساحل البحر بطريق قريش التي كانوا يأخذون عليها إلى الشام) .

وبلغ المسلمين الذين كانوا احتبسوا بمكة قول الرسول لأبي بصير (وَيْلٌ لِأُمِّهِ مَحْشَّ لَوْ كَانَ مَعَهُ رَجُالٌ) ، فخرجوا إلى أبي بصير بالعيص فاجتمع إليه من قريش سبعين رجلاً و كانوا قد ضيقوا على قريش يعترضون قوافلها التجارية لا يظفرون أحداً منهم إلا قتلواه ولا تمر بهم عير إلا اقتطعوها حتى كتب قريش إلى رسول الله (ﷺ) تسأل بارحامها إلا آواهم فلا حاجة لهم بهم فأواهم رسول الله فقدموا عليه المدينة⁽¹⁾ ، هذا وقد بقيت معاناة المسلمين الذين احتجزوا من مكة ولم يستطيعوا الهجرة ، وبعضهم بقوا محبوسين من قبل أولياء أمرهم حتى فتح مكة .

وقبيل الفتح هاجر خالد بن الوليد وخرج معه فتية من قريش قدموا المدينة ليسلموا بين يدي رسول الله (ﷺ)⁽²⁾ ، وبعد الفتاح اسلم جميع قريش وقد حظيت قريش في مجامع المدينة بمنزلة كبيرة فكانت فيهم القيادة والزعامة وان إعطاءهم هذه المنزلة المتقدمة من قبل الرسول (ﷺ) ليس عن عاطفة أو عصبية قبلية فكل قبائل الجزيرة العربية كانت تعترف بتلك المنزلة المتميزة لقريش حيث كانوا يسمون في الجاهلية أهل الله وسكان أهل الحرم⁽³⁾ .

هذا فضلاً عن كونهم السابقين في الإسلام والمصلحين من اجله ومقارتهم ديارهم وأموالهم ، وقد اظهر الكثير من رجال قريش مواهب فذة في السلم وال الحرب يذودون عن الإسلام والمسلمين⁽⁴⁾ ، وكما في قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَا جَرُوا وَجَاهُدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولَئِكَ الْأَزَّاحِمٍ﴾

¹ (?) ابن هشام ، السيرة ، ق 323-2/324 .

² (?) ابن إسحاق ، المغازي ، 867-4/884 .

³ (?) ابن حبيب ، محمد بن حبيب بن عمرو الهاشمي البغدادي ، (ت

245هـ) ، المتنمك في أخبار قريش ،

ط 1 ، تصحيح وتعليق : خورشید احمد ، (حیدر آباد الدکن-1964) ، ص 10

⁴ (?) ابن حجر ، الإصابة ، 3/2 .

**بَعْصُهُمْ أَوْلَى بِنَعْصٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُكْلِلُ شَيْءٍ
عَلِيهِ⁽¹⁾**

وقد أثني القرآن على المهاجرين والأنصار ومدحهم ووعدهم بنعيم الآخرة فقال فيهم : **لَهُوَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ
الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ بِإِخْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعْدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَخْتَهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْرُ الْعَظِيمُ⁽²⁾**

ويذكر الطبرى⁽³⁾ ، قصد (ﷺ) هنا بالمهاجرين الأولين من كان قبل البيعة إلى البيعة أي أدرك بيعة الرضوان عند صلح الحديبية . وقد رضى (ﷺ) عنهم ورضوا عنه وجزاهم جناث عدن خالدين فيها .

وللهجرة أهمية كبيرة في حياة الدولة الإسلامية في عصر النبي عندما كان عدد المسلمين قليلاً نسبياً ومقصوراً على المدينة وما جاورها وكان المسلمون مهددين بكثير من الأخطار فكان لابد من دعوة المسلمين إلى الاستقرار في المدينة ليكونوا حول الرسول كي يتمكنوا من إجابتة إذا دعاهم للدفاع عن الإسلام ، وكذلك لتعلم وإقامة شعائر الإسلام بصورة صحيحة حيث لم يكن يتسعى للمسلمين إقامة ذلك في دار الشرك لهذا كان الرسول (ﷺ) لا يقبل من أحد الدخول في الإسلام ما لم يهاجر لأن الدين الإسلامي دعا إلى التحضر وترك البداءة ، ومعنى المهاجر أصبح مرادف لسكن المدن وهي أعلى رتبة في الإسلام ، لذلك فان أبو ذر^(*) عَدَّ أقسى عقوبة حلت به من قبل عثمان (ﷺ) حين نفاه إلى بادية الربذة ، وكان يقول : **(رَدَنِي عَثْمَانَ بَعْدَ الْهِجْرَةِ أَعْرَابِي)⁽⁴⁾**

وظل هذا المفهوم في عصر الرسول إلى أن فتحت مكة فقال (ﷺ) : **(لَا هِجْرَةُ بَعْدَ الْفَتْحِ)⁽⁵⁾** ، وهذا بمعنى وقف الانتقال إلى سكن المدينة وذلك لانتفاء الكثير من الأسباب التي تدعوا إلى

¹) سورة الأنفال ، الآية : 75 .

²) سورة التوبه ، الآية : 100 .

³) تفسير ، 6/11 ، وفي رواية عن الشعبي .

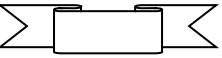
^{*} (*) أبو ذر : وهو جندب بن خنادة وهو من بنى غفار وهو من المسلمين الأوائل اسلم بعد أبو بكر بيوم أو يومين وقد اسلم بين يدي الرسول (ﷺ) في مكة وقال عنه علي بن أبي طالب (ﷺ) : وعى علمًا عجز فيه

وكان شهماً على دينه حريضاً على علمه وكان من أهل الفتوى في عصر الرسول (ﷺ) لا يخشى في الحق لومة لائم . ينظر: ابن سعد ،

الطبقات ، 2/354 ، 223-4/219 .

⁴) المصدو نفسه ، 228-4/226 .

⁵) ابن شبه ، تاريخ المدينة ، 1/262 .



الهجرة ولتجنب الاختناق السكاني وما يترتب عليه من أزمات اقتصادية واجتماعية^(*).

وشملت الهجرة أيضاً القبائل الحجازية التي هاجرت إلى المدينة فكانت منازل أسلم ومالك أبني أقصى من زاوية يقصان التي بالسوق إلى خط جهينة إلى شامي ثنية عنثت ونزلت سائر أسلم وهم آل بريدة بن الحصيب وآل سفيان ما بين زقاق الحضارمة إلى زقاق القنبلة⁽¹⁾ ، ونزل أشجع بن ريث بن غطفان الشعب الذي يقال له شعب أشجع وهو ما بين سائلة أشجع إلى ثنية الوداع⁽²⁾ .

ونزل بنو غفار بن مليل بن حمزة بن بكر بن عبد مناف بن كنانة القطيعة التي قطعها لهم النبي (ﷺ) وهي ما بين دار الحجارة بالسوق إلى زقاق ابن حبيب⁽³⁾ .

أما عن مساكن المهاجرة من قريش ، فكان دور عبد بن قصي في زقاق الصفارين ، أما دور بني زهرة منها دور عبد الرحمن بن عوف فكانت قرب المسجد^(**) .

4- الموالي والعييد :

يشكل هؤلاء طبقة واسعة في المجتمع العربي وخاصة مجتمع مكة والمدينة ، وليس هذه الظاهرة خاصة فقط بالمجتمع العربي ، وإنما كانت سائدة في مختلف البيئات والبلدان في ذلك العصر ، وتتشكل هذه الفئة أدنى الفئات في الترتيب القبلي للقبيلة ، وتمثل أيضاً آخر طبقة في السلم الاجتماعي ، وتعد الحروب ،

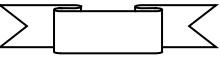
(*) وهناك رسالة جامعية متخصصة وهي :- خليفة ، حامد محمد ، مهاجرة الحجاج تكوينهم وأثرهم في بناء الدولة في عهد الرسول (ﷺ) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، مقدمة إلى جامعة بغداد ، كلية الآداب ، (بغداد-1995) . *

(?) ابن شبة ، تاريخ المدينة ، 160/1-164 . ¹

(?) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، 2/86 . ²

(?) ابن شبة ، تاريخ المدينة ، 1/159 . ³

(**) ولمزيد من الإطلاع عن مساكن المهاجرين من قريش والقبائل العربية المهاجرة ؛ ينظر ابن شبة ، تاريخ المدينة ، 142/164 .



والغزوات من أهم مصادر العبيد⁽¹⁾ ، وكانت المناطق المجاورة لجزيرة العرب في أفريقيا مصدرًا مهمًا من مصادر العبيد⁽²⁾ ، وكانت هذه الطبقة اجتماعياً محرومة من الامتيازات مثقلة بالواجبات ، ولاسيما من كان منهم من أصحاب السواد من أبناء الإماماء الذين كان العرب يطلقون عليهم اسم الهجناء ويأبوا إلها لهم بأنسابهم وكان يقال لولد العربي من غير العربية أيضًا الهجين لأن الغالب على ألوان العرب الأدمة⁽³⁾ ، وكانت العرب قبل الإسلام إذا كان للرجل منهم ولد من أمه استعبده ومن الأمثلة على ذلك عترة بن شداد ، وكان ابن امة سوداء ، رفض أبوه أن يلحقه بنسبه ، حتى أبدى شجاعة نادرة في الدفاع عن القبيلة فاعترف به^(*) .

ولقد ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة مكية ومدنية متنوعة الأهداف والأساليب تصور الرق والرقيق وتحدد موقفهم الاجتماعي والقانوني كمل في قوله تعالى :-

**١- إِنَّمَا أَنْهَا اللَّهُ أَمْنُوا كَيْبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى
الْجُرْحُ بِالْحُرْ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى
بِالْأَنْثَى ...**⁽⁴⁾

وهنا تأكيد صريح على عدم تخطي السلم الطبقي في القصاص في القتل فلا يجوز قتل حر بعد ولا عبد بحر ، لأن القرآن الكريم اعترف ببعض الأعراف والتقاليد والنظم الجاهلية وهذب بعضها والغي البعض الآخر الذي يتعارض مع تعاليم الإسلام ٢- **وَلَا تُنْكِحُوا الْمُسْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ وَلَا مَأْمُونَةً حَيْرَ
مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُسْرِكِينَ حَتَّىٰ
يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدُ مُؤْمِنٌ حَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ...**⁽⁵⁾.

¹) ابن هشام ، السيرة ، ق 459/2 ، ق 676/1 .
²) ابن حجر ، الإصابة ، 2/214 ، 367 .

²) زيدان ، جرجي ، تاريخ التمدن الإسلامي ، (بيروت- د.ت) ، ج 4 ، ص 20 .

³) ابن منظور ، لسان العرب ، 13/431 : ابن قتيبة ، أبي محمد عبد الله بن مسلم الدينوري ، (ت 276هـ) ، الشعر والشعراء ، دار إحياء العلوم ، (بيروت - 1986) ، ص 153 .

^{*}) وعند هجوم إحدى القبائل العرب على قبيلة عترة قال له أبوه : كر لأن العبد لا يحسن القتال فانشد عترة :- (كل امرئ يحمي حره * أسوده وأحمره) . ينظر: عترة العبسي ، ديوانه ، شرح كمال البستاني ، دار صادر ، (بيروت-1958) ، ص 23 .

⁴) سورة البقرة ، من الآية : 178 .

⁵) سورة البقرة ، من الآية : 221 .

وهنا ترغيب منه (١) بزواج العبيد والإماء المؤمنين لتحقيق نوع من المساواة في المجتمع .

3- ... فَإِنْ حَفِظْتُمْ أَلَا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكْتُ أَيْمَانُكُمْ ...^(١)

ومعنى الآية الكريمة كما أورد الطبرى^(٢) : يحق للمسلم أن يتزوج متى وثلاث ورابع كما حددت الآيات السابقة للآية ، فان خاف الرجل أن لا يعدل ويحور بينهن فعليه أن يقتنع بواحدة . ويتسرى بما هو ملك يمينه من الإماء ، إذن إن دور الجواري لم يكن مقتضياً على الخدمة عند الأسياد ، وإنما أيضاً للتسلية وإرضاء الشهوات^(٣) ، وان مالك الإماء يحق له أن ينكح ما يريد دون عقد زواج يدهن ملك اليمين .

4- ... وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَلْوًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكْتُ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِاِيمَانِكُمْ بَعْصُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانِكُحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَأَئُوهُنَّ أَجْوَرُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ عَنِّ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتٍ أَخْدَانٍ فَإِذَا أَخْصَنَ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفٌ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ العَدَابِ ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ الْعَنْتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ^(٤) .

والمعنى ، فإذا لم يستطع المؤمن الحر من الزواج بالحرائر لعدم السعة والغنى فلينكح من إماء المؤمنين بإذن أربابهن^(٥) ، وهنا نستنتج قاعدة عامة لا يمكن للعبد أو الأمة الزواج دون إذن سيدهما^(٦) .

وكان الإماء مادة البغاء في الجاهلية فكن أكثر تعرضاً له وارتکاساً فيه وكان أمراً مستساغاً بالنسبة اليهـن ، لهذا عندما وضع الإسلام عقوبة الزنا جعل على الأمة نصف عقوبة الحرفة^(٧) ، لهذا كان أهل المدينة يكرهون اتخاذ الإماء امهاتاً لأولادهم^(٨) ،

^١ (؟) سورة النساء ، من الآية : 3 .
^٢ (؟) تفسيره ، 581-4/580 .

^٣ (؟) الاصفهاني ، الأغاني ، 1/65 .

^٤ (؟) سورة النساء ، الآية : 25 .

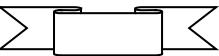
^٥ (؟) الطبرى ، تفسيره ، 21-5/16 .

^٦ (؟) دروزة ، عصر النبي ، ص 233 .

^٧ (؟) الشريف ، مكة والمدينة ، ص 235 ، وسيتم الحديث عن الإماء والزنـى بشكل مفصل في الفصل القادم .

^٨ (؟) الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، (ت 255هـ) ، المحاسن

والأصداد ، تصحيح : محمد أمين
الخانجي ، مطبعة السعادة ، (مصر- د.ت) ، ص 253 .



ولهذا أوصى (ﷺ) المؤمنين غير القادرين على زواج الحرائر ،
بالصبر على الزواج .

ومن الآيات التي ورد فيها ذكر العبيد قوله تعالى :

5- **وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأُ الْعَزِيزِ ثُرَاوِدْ فَتَاهَا
عَنْ نَفْسِهِ .**⁽¹⁾

6- **إِنَّ رَبَّ اللَّهِ مَثَلًا عَنِّيْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ
رَزَقْنَا هُوَ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُتَفْعَلُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ
يَسْتَوْنَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**⁽²⁾ .

ويبدو من هذه الآيات انه كان يطلق على الرقيق تعبيرات
**(العبد من الذكور للمفرد والأمة للمفرد والإماء للجمع
من الإناث وهو تعبير يستخدم نقىض الحرمة والحر ،
ويستخدم تعبير الغلمان والولدان ، على الأرقاء من
الذكور وهم من لم يصلوا إلى سن كبيرة ويقومون بخدمة
مالكم الخاصة ، وتعبير الفتى والفتاة يطلق لتلطيف
والتحبيب⁽³⁾)** ، وان لفظ العبد مشتق من العبادة وهي الخضوع
وهذا التعبير ورد في العديد من الآيات ونسبة الناس إلى الله (ﷺ)
ولاسيما الأنبياء والصالحين والملائكة ، وأحياناً يؤدي معنى التلطيف
والاعزار باعتبار أن الخضوع لله وهو الخضوع الحق الذي ليس فيه
تلك الذلة والهوان كما في عبودية الإنسان لأخيه الإنسان⁽⁴⁾ .

ويبدو لنا من مجموع الآيات السابقة فضلاً عما أورده مصادر
التاريخ إن الموالى شكلوا طبقة اجتماعية كبيرة في مجتمع
المدينة في العهد النبوي⁽⁵⁾ ، وان غالبيتهم كانوا من غير العرب ،
وهذا التنظيم الاجتماعي اقتضته ظروف تلك المرحلة حيث كان
ضرورة اجتماعية لا غنى عنها للاعتماد عليهم للقيام بالكثير من
الأعمال التي كانت يصعب على المجاهدين القيام بها لانشغالهم
بأمر الجهاد ونشر الإسلام⁽⁶⁾ .

على أن هناك من الموالى من شارك في كثير من الغزوات
واظهر براعة فائقة في القتال بين يدي رسول الله (ﷺ)⁽⁷⁾ ، وقد
شهد بدراً عشرون مملوكاً ، ومنهم شقران وهو مملوك النبي (ﷺ)

¹ (?) سورة يوسف ، من الآية : 30 .

² (?) سورة النحل ، الآية : 75 .

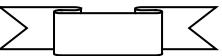
³ (?) دروزة ، عصر النبي ، ص 233-232 .

⁴ (?) المصدر نفسه ، ص 233 .

⁵ (?) ابن حجر ، الإصابة ، 2/454 .

⁶ (?) المصدر نفسه ، 1/75 ، 231 ، 362 ، 2/58 .

⁷ (?) الواقدي ، المغارزي ، 1/204 .



لم يسهم له بشيء وكان على الأسرى فاجزاه كل رجل له أسير ، فأصاب أكثر مما أصاب أي رجل من القوم⁽¹⁾ . وكان السبب أحد أدوات وجود الأرقاء في المدينة على عهد النبي (ﷺ) وهم في الغالب من القبائل العربية ممن أفاء الله على رسوله ، ولم يكن اسر هؤلاء العرب لمجرد استرقاقهم بقدر ما كان يستهدف تحريرهم من ضغوط ربما كانت تمنعهم من دخول الإسلام داخل قبائلهم . ولذا نجد أنهم يعاملون معاملة إنسانية عالية فلم يكن يفرق بين الأم وابنها⁽²⁾ ، أو بينها وبين زوجها إذا كانت تريده أو يريدها⁽³⁾ .

لقد أكد القرآن الكريم على انعدام الطبقة في المجتمع المسلم بمعناه المتطرف ومفهومها الضيق كما في قوله تعالى : **وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ...**⁽⁴⁾ وأكد رسوله الكريم (ﷺ) على ذلك ونستطيع أن نرى ذلك من خلال مدلولات هذا الحديث للرسول الكريم : **(إِذَا أَتَاكُمْ مِنْ تَرْضُونَ خُلْقَهُ وَدِينَهُ فَزَوْجُوهُ ...)**⁽⁵⁾

لهذا نرى رسول الله (ﷺ) عندما خطب زينب بنت جحش ابنة عمته لمولاه زيد بن حارثة ، فاستنكت من الزواج به وقالت أنا خير منه نسباً⁽⁶⁾ ، ثم عالج القرآن الكريم قضية الإمام والعبد وجعلهم أخوة لساداتهم ، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم من الواجبات والفرض ، باستثناء بعض القضايا الشرعية^(*) ، لهذا نراه يوصي بحسن معاملتهم كما في قوله تعالى : **وَاعْيُدُوا اللَّهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ بِشَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِخْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكْتُ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُحْتَالًا فَخُورًا**⁽⁷⁾ .

لهذا نرى الرسول (ﷺ) ومعظم الصحابة كثيراً ما يمنون على الأسرى بالعتق عند وصولهم إلى المدينة⁽⁸⁾ ، وكانت مهور السبايا

¹) المصد، نفسه ، 1/153 .

²) ابن حجر ، الإصابة ، 2/214 ، 367 ، 467-3/466 .

³) المصد، نفسه ، 3/452 .

⁴) سورة الأنعام ، من الآية : 98 .

⁵) ابن ماجة ، سنن ابن ماجة ، 1/632 .

⁶) الطبرى ، تفسيره ، 7/201 .

^{*}) كما ذكرت عن (المهر وحكم الشرع في عقوبة الزنا) ، ينظر : ص 252 ، ص 259 ، ينظر القرطبي ، تفسيره ، 145-5/144 .

⁷) سورة النساء ، من الآية : 36 .

⁸) ابن حجر ، الإصابة ، 2/367 ، 490-1/489 .

العربيات يوازي مهور العربيات على عهد أبي بكر لإقناده الصحابة
بالرسول ﷺ⁽¹⁾.

وقد استحب أهل المدينة استعمال لفظ مولى فلان وفضلوه
على قولهم عبد فلان وهو العبد المملوك ، كما يراد به أيضاً العبد
المعتق⁽²⁾.

والموالي في الجاهلية كانوا بمعنى العصبة فلما دخلت العجم
على العرب لم يجدوا لهم اسمًا فسموهم بهذا الاسم⁽³⁾ ، والمولى
موليان : مولى يرث ويورث فهو لاء ذو الأرحام ، ومولى يورث ولا
يرث فهو لاء العتقة ، وهو الرقيق أو الأسير الذي تفك رقبته
بعتقه⁽⁴⁾ ، وقد أوصى به ﷺ : **إذْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَفْسَطُ عِنْدَ**
اللهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ
وَمَوَالِيَّكُمْ وَلَا يَسُنَّ عَلَيْكُمْ حُنَاجٌ فِيمَا أَحْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكُنْ مَا
تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوراً رَّحِيمًا⁽⁵⁾.

ويوجد في المدينة موالي من الحبشة وتذكر الروايات إنهم
عند قدوم رسول الله ﷺ لعبت الموالي من الحبشة بحرابهم فرحاً
بقدومه إلى المدينة⁽⁶⁾ ، وعلى الرغم من أن الإسلام اعترف
بالعبودية وكان الرسول ﷺ وكثير من الصحابة⁽⁷⁾ يمتلكون الرقيق
من الجنسين إلا أنه حاول تحريرهم من العبودية⁽⁷⁾ وحث
المسلمين على عتق الرقاب كلما سنجت الفرصة كما في قوله
تعالى : **وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَلَكَ رَقَبَةٌ**⁽⁸⁾.

والعتق هو إزالة الملك وهي مشتقة من قولهم عتق الفرس
إذا سيف وعتق ، لأن الرقيق يتخلص بالعتق ويذهب حيث شاء
وفي حديث عن البراء بن عازب عن الرسول ﷺ قال : **(اعتق**
النسمة أن تفرد بعتقها وفك الرقبة أن تعين في
عتقها)⁽⁹⁾ ، حتى جعل الإسلام من تحرير العبيد قربى وكفارة
على المؤمن واعدها من الأعمال الصالحة التي ترضي الله ﷺ كما
جاء في قوله تعالى في كفارة القتل الخطأ :-

¹ (?) ابن حبيب ، المتنمك ، ص 505 .

² (?) ابن حجر ، الإصابة ، 3/548 .

³ (?) جواد علي ، المفصل ، 4/366 : وكان العرب يسمون الفرس العجم
(الحمراء) ، وبسموهم رقاب المزاد.

⁴ (?) المصدوقي ، نفسه ، 4/366 .

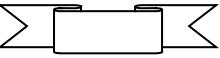
⁵ (?) سورة الأحزاب ، الآية : 5 ، ونزلت في زيد بن حارثة الذي تبناه
الرسول ؛ ينظر الطبراني ، تفسيره ، 22/46 .

⁶ (?) البخاري ، صحيح ، 3/258 : السمهودي ، وفاء الوفا ، 1/264 .

⁷ (?) ابن حجر ، الإصابة ، 4/286 .

⁸ (?) سورة البلد ، الآية : 13-12 .

⁹ (?) ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري ، 5/146 .



١- ... فَتَخْرِيزُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدَيْهُ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ ...^(١)

٢- وقال في كفارة اليمين : ... اطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَخْرِيزُ رَقَبَةٍ ...^(٢)

٣- وكذلك كفارة الظهار : ... وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَخْرِيزُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَسَّا ...^(٣)

وكذلك أوصى الله تعالى بالبر إليهم والاعطف عليهم ضمن جملة من الشرائع الاجتماعية لأن الأعمال الصالحة لا تقتصر على العبادات .

... وَلَكَنَّ الْبَرَّ مِنْ آمِنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالْبَيِّنَاتِ وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبُّهِ دُوِيَ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ...^(٤)

إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤْلَفَةِ فُلُوْبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ ...^(٥)

إذن نستدل من هذه الآية : كثرة الرقيق في المدينة وان بعضهم كان ينال سوء المعاملة ولا يحق لهم امتلاك الأموال لهذا نرى القرآن الكريم قد أوصى بهم خيرا ، وكان الموالى يزاولون بعض المهن والحرف الوضيعة التي كان العربي يأبى القيام بها من تلك الحرف الجاما^(٦) ، وكذلك حرفة عمل السيف وبرى النبال^(٧) ، وكانت مارية سرية للرسول وهي ملك اليمين ، ويدرك ابن سعد^(٨) : إن الرسول حرم أم إبراهيم أي (مارية) ، وكفر^٤ يمينه بعد أن انزل الله في الايلاء : **قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةً**

^١ (؟) سورة النساء ، من الآية : 92 .

^٢ (؟) سورة المائدة ، من الآية : 89 .

^٣ (؟) سورة القصص ، من الآية : 3 .

⁴ (؟) سورة البقرة ، من الآية : 177 ، وفي الرقاب : وهي فك الرقاب من العبودية وهم المكتوبون الذين يسعون في فك رقابهم من العبودية بأداء كتاباتهم التي فارقوا عليها ساداتهم ، ينظر الطبرى ، تفسيره ، 2/58 ؛ السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال ، (ت 911هـ) ، الدر المنشور ، دار الفكر ، (بيروت 1993) ، ج 1 ، ص 416 .

^٥ (؟) سورة التوبه ، من الآية : 60 .

^٦ (؟) ابن سعد ، الطبقات ، 1/444 .

^٧ (؟) ابن حجر ، الإصابة ، 3/649 .

^٨ (؟) الطبقات ، 153-8/154 : البلاذري ، انساب الأشراف ، 448-1/450 .

أَيْمَانُكُمْ ...⁽¹⁾ ، وانزل الله : **إِنَّا أَيَّهَا لِلَّتِي لَمْ تُحَرِّمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجَكَ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ**⁽²⁾ . فالحرام حلال يعني في الإمام ، إذا قال الرجل لجاريه أنت على حرام فليس بشيء ، وإذا قال لا أقربك فعليه الكفارة⁽³⁾ . ولما ولدت مارية إبراهيم قال الرسول : اعتقها ولدها وقال : أيما أمة ولدت من سيدها فإنها حرة إذا مات إلا أن يعتقها قبل موته⁽⁴⁾ .

وكان الرسول⁽⁵⁾ نفسه لديه عدد من العبيد اعتق أكثرهم ومنهم زيد بن حارثة ، واعتقه رسول الله وتبناه ، وكذلك أم أيمن بركرة مولا رسول الله وحاضنته ورثها من أبيه واعتقها ، وثوبان و (صالح) : وهو شقران ، وجاريه يقال لها روضة ... وغيرهم⁽⁶⁾ . ومن الممكن أن يشتري الرقيق نفسه من مالكه إذا وافق المالك على ذلك وكان من طرائق هذا الشراء (**المكاتبية**) وهي تعهد العبد بإيراد مبلغ معين إلى سيده ضمن مدة معينة ثمناً لنفسه والسماح للعبد بالتكسب لأجل ذلك⁽⁷⁾ ، وقصة سلمان الفارسي^(*) خير مثال لوجود هؤلاء الأرقاء في مجتمع المدينة ، وهناك في كتب الفقه الإسلامي والحديث تفاصيل في أحكام الرقيق ومعاملتهم وتحريرهم وغير ذلك من التفاصيل التي يطول شرحها⁽⁷⁾ .

¹ (?) سورة التحرير ، من الآية : 2 .

² (?) سورة التحرير ، الآية : 1 .

³ (?) ابن سعد ، الطبقات ، 8/154 .

⁴ (?) المصدر ، نفسه ، 8/155 .

⁵ (?) المصدر ، نفسه ، 8/423 ، ولمزيد من الإطلاع ينظر ابن حبيب ، المحبر ، ص 128-129 .

⁶ (?) الطبرى ، تفسيره ، 117/18-125 .

^{*} (*) سلمان الفارسي : هو سلمان ابن الإسلام أبو عبد الله الفارسي سابق الفرس إلى الإسلام كما قال رسول الله⁽⁶⁾ وقد صحب الرسول وحدث عنه وكان ليبيًا عاقلًا وقد أشار على الرسول بفكرة حفر الخندق وكان فارسيًا من أصبهان وكان أبوه دهقاناً وكان مجوسياً ثم اتبع المسيحية وهاجر إلى الشام ثم إلى عمورية وظل يبحث عن أفضل صاحب دين إلى أن ظلم وبيع عبداً وحمل إلى بئرب فاشتراه رجل يهودي ظلل على خدمته حتى سمع برسول الله⁽⁶⁾ وأسلم على يده ونصحه بأن يكتب اليهود على عنقه بمبلغ من المال ونخل وقد ساعده إخوانه المسلمين ورسول الله على الایفاء بعقده وشارك في كل المعارك إلا بدر واحد بسبب رقه . ينظر: أبو نعيم الاصبهاني ، احمد بن عبد الله ، (ت 435هـ) ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ط 4 ، دار الكتاب العربي ، (بيروت 1405هـ) ، ج 1 ، ص 185 ؛ الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، 510/1-555 .

⁷ (?) ينظر البخاري ، صحيح ، 1/245 ، 2/47 ، 756 ، 796 ، 936 ، مالك بن انس ، (ت 179هـ) ، الموطأ ، تحقيق: فؤاد عبد الباقي ، (القاهرة-

وقد أشار تعلى إلى ذلك بقوله : ﴿ وَلَيْسَتْغُفِفُ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي أَتَاكُمْ ... ﴾⁽¹⁾

وفي المدينة فئة من الموالي يعرفون باسم المولدين : وهي تسمية تطلق على العربي غير المحضر وقيل هو ولد عند العرب ونشأ مع أولادهم وتأدب بأديتهم وكانوا ينسبون إلى بلدانهم أو قبائلهم فيقال مولدي مكة ومولدي الشراة ومولدي مزينة ، وكانوا يباعون مثل أي رقيق⁽²⁾ ، وقد ظهر العديد منهم من المغنيين والمغنيات في العصر الأموي والعباسي وقسم منهم كان رفيع النسب امتاز بالفن والأدب⁽³⁾ ، وفي مجتمع المدينة أيضاً عناصر دينية أخرى غير اليهود ومنهم :-

العناصر الدينية غير اليهودية في المدينة

أ- النصارى :-

لقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة ورد فيها ذكر النصارى وخاصة في السور المدنية التي نزلت على رسول الله (ﷺ) في المدينة وفيها إشارة إلى أن أهل المدينة كانوا على معرفة واتصال مباشر بهم كما في قوله تعالى :

1- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُوِّنُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ... ﴾⁽⁴⁾

وكما نعلم سابقاً أن هذه الآية نزلت في وفد الأنصار المباع لرسول الله في بيعة العقبة الثانية ، فساهم (ﷺ) بأنصار الله ورسوله وأمرهم أن يكونوا لأنصار عيسى ابن مريم (ﷺ) ، وهنا إشارة واضحة إلى كونهم ذوي معرفة بهم فليس من المعقول أن يستخدم (ﷺ) هذا المثال والواسع والخزرج يجهلون معرفتهم ، ومن الملاحظ أن ذكر النصارى جاء مقترباً مع اليهود في اغلب الآيات المدنية كما في قوله تعالى :

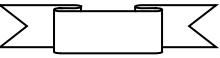
1951) ج 1 ، ص 283 ، ج 2 ، ص 453 ; ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري ، 5/146 .

¹ (?) سورة النور ، من الآية : 33 .

² (?) البستاني ، المعلم بطرس ، (ت 1300هـ) ، كتاب محيط المحيط ، (بيروت-1286هـ) ، ج 2 ، ص 27 ، (مادة ولد) .

³ (?) الاصفهاني ، الأغاني ، 7/128 ، وما بعدها .

⁴ (?) سورة الصاف ، من الآية : 14 .



2- ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ...﴾⁽¹⁾

3- ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ ...﴾⁽²⁾

4- ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبْيَعَ مِلَّتَهُمْ ...﴾⁽³⁾

5- ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ...﴾⁽⁴⁾

6- ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى تَحْنُ أَبْنَاءَ اللَّهِ وَأَجِبَّاُمُ ...﴾⁽⁵⁾

وتذكر الروايات التاريخية أن المبشرين بالديانة المسيحية كانوا يجوبون الجزيرة العربية وإنهم قد وردوا مكة لذلك فليس من المعقول أن يذهب هؤلاء إلى مكة ولا يذهبون إلى المدينة وهي أقرب من مكة إلى الشام مركز النصرانية وخلفاء الروم المسيحيين ، وخاصة أن دولة الروم قد شجعت على التبشير هناك لكسب العرب إلى صفها من الناحية الدينية ضد الفرس في قتالهم معهم⁽⁶⁾ .

ومن المحتمل أيضاً أن هذه الآيات كانت بهؤلاء النصارى أن يكونوا عرباً متنصرين من أهل المدينة كما كان الأمر في مكة أو عرباً من غير أهلها قد جاءوا وقاموا فيها لظروف اقتصادية وغير اقتصادية⁽⁷⁾ ، وتذكر الروايات التاريخية أن أبي قيس بن أبي انس من بني النجار كان رجلاً قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح وفارق الأوثان واغتنس من الجنابة واعتزل الحائض من النساء وهم بالنصرانية ثم امسك حتى قدم رسول الله (ﷺ) المدينة فاسلم⁽⁸⁾ ، وان أبي عامر عبد عمرو بن صيفي بن النعمان من بني عمرو ابن عوف من الاوس ، وهو أبو حنظلة غسل الملائكة وكان سيداً قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح فلما قدم النبي (ﷺ) المدينة كان له معه خطب طويل فخرج في خمسين غلاماً فمات على النصرانية بالشام⁽⁹⁾ .

(?) سورة البقرة ، من الآية : 111 .

(?) سورة البقرة ، من الآية : 113 .

(?) سورة البقرة ، من الآية : 120 .

(?) سورة البقرة ، من الآية : 135 .

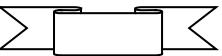
(?) سورة المائدة ، من الآية : 18 .

(?) الشريف ، مكة والمدينة ، ص 332 .

(?) دروزة ، عصر النبي ، ص 125 .

(?) ابن إسحاق ، السيرة ، 2/356 .

(?) المسعودي ، مروج الذهب ، 1/88 .



وكان للتجار النصارى الذين يأتون من بلاد الشام بكثرة إلى يشرب اثر كبير في نشر النصرانية في المدينة ، وفي رواية ذكرها الطبرى⁽¹⁾ ، أن رجلاً من الأنصار من بنى سالم بن عوف له ابنان فلما قدم تجار من الشام إلى المدينة يحملون الزيت فدعوا ابنى سالم بن عوف إلى النصرانية فتنصروا وخرجوا معهم إلى الشام ، فلما قدم الرسول (ﷺ) إلى المدينة واسلم أهلها ومنهم أبو الحصين فسأل رسول الله (ﷺ) على إرغام ولديه على ترك النصرانية ، فنزل فيه قوله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهٌ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرُ بِالظَّاغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُتْقَى لَا إِنْفِضَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيهِمْ ﴾⁽²⁾

وفي بعض الآيات التي ورد فيها ذكر النصارى قد يكون استطراداً أو تعبيراً متماشياً مع اليهود ، إلا إنها تحتوي على دلالات صريحة على أن النبي قد التقى بطوائف مختلفة من النصارى في أوقات متفاوتة ودعاهم للإسلام⁽³⁾ ، كما في الآية التالية :-

١- ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلَ آدَمَ خَلْقَهُ مِنْ بُرَابِ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ فَمَنْ حَاجَلَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ تَبَهَّلْ فَتَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَادِيَّينَ ﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصْصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾⁽⁴⁾

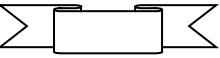
ويذكر أصحاب السير والمفسرون عدة روايات متشابهة مفادها ، أن وفداً من نصارى نجران قدموا إلى المدينة فيهم العاقد والسيد وهما سيدان نجران واسقفيهم وقد حاجوا رسول الله (ﷺ) في عيسى (ﷺ) فسألوه عن قوله في عيسى قال : هو عبد الله وروحه وكلمته ، قالوا : لا بل هو الله وكل أدمي له أب فما شأنه لا أب له ، وسألوه أيضاً أن ينزل عليهم معجزات مثل عيسى ، فأنزل (ﷺ) هذه الآيات احتجاجاً على قولهم وان خلقه من غير أب كخلق آدم

¹ (?) تفسير الطبرى ، 3/15 . في رواية عن السدى .

² (?) سورة البقرة ، الآية : 256 .

³ (?) دروزة ، عصر النبي ، ص 124 .

⁴ (?) سورة آل عمران ، الآية : 62-59 .



من غير أم ولا أب ودعاهم للمباهله أي الملاعنة على من يكذب⁽¹⁾ ، وكذلك انزل فيهم قوله تعالى :

2- **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا أَيُّوبَ إِنِّي إِنْتَ أَغْبَدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّمَا مَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَا وَاهَ الْبَأْرُ وَمَا لِلطَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ تَآلَّتْ تَلَاثَةٌ وَمَا مِنْ إِلَهٌ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَتَنَاهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمْسَسَ الدِّينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ⁽²⁾ .**

3- **إِنَّمَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِ الرَّسُولُ وَأَمَّهُ صِدِيقَهُ كَانَا يَأْكُلُانِ الطَّعَامَ اتَطْرَأْ كَيْفَ تُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ اتَطْرَأْ أَنِّي يُؤْفَكُونَ⁽³⁾ .**

وإذا كانت ظروف الشام قد حملت بعض النصارى غير العرب على النزوح إلى مكة والإقامة بها وكذلك قيام تجار مكة بشراء بعضهم من الرقيق لاحتاجتهم الاقتصادية فمن الممكن أن يكون هذا الأمر مقتضياً على مكة ولاسيما أن المدينة اقرب إلى الشام من مكة مما جعل النازحين من الاسرائيليين من الشام يفضلون الإقامة في المدينة كما ذكرنا سابقاً فتذكر أحدي الروايات أن صانع منبر الرسول⁽⁴⁾ كان نجاراً رومياً اسمه يا قوم وكان مقيناً في المدينة⁽⁴⁾ ، ويجد في المدينة على عهد النبي⁽⁵⁾ بعض النصارى الذين بقوا على دينهم ، وقد عرض الرسول على بعضهم الإسلام ولم يفرضه عليهم فأبوا إلا النصرانية فقسم أموالهم نصفين فأخذ نصفها وترك لهم حرفيتهم الدينية وبقى بعضهم متربداً بين الإسلام والنصرانية ثم اسلموا على عهد أبي بكر⁽⁵⁾ ، وكانت بين غساسنة الشام وقبيلتي الاوس والخرج البثيريين صلات نسبية ومحالفات قبل الإسلام لأن الجميع يرتبطون بقبيلة الاوز اليمانية وقد نصروهم وأمدوهם بحند من الشام خلال صراعهم مع اليهود وربما بقي الكثير من هؤلاء الجندي ومعظمهم من المسيحيين في يثرب ولم يعودوا لبلادهم بعد إنجاز مهمتهم وربما حاول البعض من هؤلاء الجندي التبشير بالديانة المسيحية بين أبناء عمومتهم .

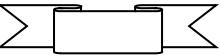
¹ (?) ابن هشام ، السيرة ، ق 1/573 ; الطبرى ، تفسيره ، 293-3/294 .

² (?) سورة المائدة ، الآية : 72-73 ; ينظر الشهريستاني ، الإمام أبي الفتح عبد الكريم ، (ت 548هـ) ، الملل والنحل ، ط 1 ، مكتبة المثنى ، (بغداد-1321هـ) ، ج 1 ، ص 95-99 ، وفيه تعريف بكفرهم .

³ (?) سورة المائدة ، الآية : 75 .

⁴ (?) دروزة ، عصر النبي ، ص 125 ، هامش الصفحة .

⁵ (?) ابن حجر ، الإصابة ، 1/236 ، 3/298-300 .



وقد بقيت هذه العلاقات الطيبة بين الغساسنة والواس والخرج حتى بعد انتشار الإسلام في المدينة فكانت هدايا جبلة بن الأبيهم مثلاً لا تقطع عن شاعر النبي حسان بن ثابت على الرغم من دخوله الإسلام وانقطاعه عنهم⁽¹⁾ ، لترحيمه (ﷺ) موالاتهم كما جاء في قوله تعالى : **إِنَّمَا أَيُّهَا الْدِينَ آمَنُوا لَا تَسْبِحُوا إِلَيْهِ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلَيَاءَ بَغْضُهُمْ أُولَيَاءَ بَغْضٍ ...**⁽²⁾

كما تذكر الروايات أن كعب بن مالك الشاعر الخرجي حين تخلف عن غزوة تبوك وقاطعه رسول الله (ﷺ) والمسلمون ، أرسل إليه ملك غسان وافد من الشام برسالة يبلغه فيها برغبته في قدوم كعب إلى بلاد الغساسنة لإكرامه ومواساته⁽³⁾ ، وتدل هذه الرواية على قوة العلاقة بين الطرفين وسهولة وسرعة وصول أخبار أهل المدينة إلى بلاد الشام ، وقد وجه (ﷺ) دعوته لليهود والنصارى للإيمان بدعوة الرسول (ﷺ) كما جاء في قوله تعالى : **إِنَّمَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَغْفِرُ عَنْ كَثِيرٍ ...**⁽⁴⁾

وقوله تعالى : **إِنَّمَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ...**⁽⁵⁾

ثم يصف (ﷺ) أقرب الناس مودة للمسلمين ولرسوله الكريم (ﷺ) هم النصارى وإنهم ذو أخلاق دمثة وعواطف رقيقة وغير راغبين في إثارة الجدل والخصومة⁽⁶⁾ : **الْتَّحَدُّنُ أَسَدُ النَّاسِ عَدَاوَةُ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَيْهِ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَنْجَدُنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَاتَلُوا إِنَّمَا تَصَارَىٰ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَسِيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكِرُونَ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيَّ الرَّسُولُ تَرَىٰ أَغْيَنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاقْتُلْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**⁽⁷⁾ .

⁽¹⁾ (؟) الاصفهاني ، الأغاني ، 14/6 ؛ ينظر د. محمد طاهر درويش ، حسان بن ثابت ، ص 19.

⁽²⁾ (؟) سورة المائدة ، من الآية : 51.

⁽³⁾ (؟) ابن هشام ، السيرة ، ق 2/534.

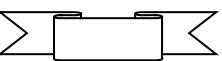
⁽⁴⁾ (؟) سورة المائدة ، من الآية : 15.

⁽⁵⁾ (؟) سورة المائدة ، من الآية : 19.

⁽⁶⁾ (؟) دروزة ، عصر النبي ، ص 126.

⁽⁷⁾ (؟) سورة المائدة ، الآية : 83-82.

⁽³⁾ تفسير الطبرى ، 4-7/2 والقسيسون جمع قس وهم العباد من النصارى أما الرهبان فهو جمع راهب وهم الذين يرهبون الله في الأديرة والصوماع وان منهم علماء بكتبهم وأهل تلاوة .



ويذكر الطبرى⁽¹⁾ قائلاً : قد يكون أريد بهم وفد النصارى من الحبشة الذى أرسلهم النجاشى لمقابلة الرسول (ﷺ) وقد يكون أريد به قوماً كانوا على شريعة عيسى فأدرکهم الإسلام فأسلموا لما سمعوا القرآن لما عرفوا انه الحق ولم يستكروا ، وتذكر الروايات أن معظم النصارى الذين جاؤوا إلى يثرب لم يستقروا بصفة دائمة في المدينة وإنما كانوا يأتونها لإنجاز بعض المهام التجارية ، ومنهم وفد من أهل الحيرة^(*) حيث مركز النصرانية إلى ما قبل الإسلام ، وكان بينهم وبين عمر بن الخطاب (ﷺ) شراكة في تجارة البز (الثياب)⁽²⁾ ، ويمكن الاستنتاج من الآيات المدنية في القرآن الكريم التي أوردنا ذكرها ، سواء عن طريق توجيهه (ﷺ) الخطاب للنصارى عاماً وبشكل مباشر أو الإشادة بموقف بعضهم الودي من دعوة النبي (ﷺ) أو تعنيف بعضهم على مواقفهم الجحودية من الدعوة والرد على دعواهم الباطلة في المسيح (ﷺ) ، وكذلك تدعيم هذا الموقف ببعض الروايات التاريخية على أنهم كانوا طبقة وان لم تكن مكتلة أو كبيرة مثل اليهود سواء كانوا عرباً من أهل المدينة أو عرباً متنصرين من غير أهلها جاؤوا المدينة لأسباب اقتصادية أو غيرها أو قد يكون قسم منهم من أصول رومية أو سريانية أو أقباط أو عجم⁽³⁾ ، مما كان لجميع هؤلاء اثر في عقائد العرب وأديانهم وأفكارهم وان لم يكن هذا الأثر الكبير إلا انه كان له صدى مسماوعاً في آيات القرآن الكريم ، وقد ظل الرسول (ﷺ) على علاقته الطيبة مع المسيحيين زمناً طويلاً⁽⁴⁾ ، خصوصاً وإنهم لم يقفوا موقفاً معادياً ولم يتآمروا عليه كما فعلت اليهود ، ولكن الموقف كما يبدو قد تغير بعد ذلك ونستطيع أن نلاحظ ذلك جلياً من خلال آيات سورة التوبة ، التي جاء معظمها موضحاً سلسلة الأحداث والمواقوف الخاصة بغزوة تبوك التي قادها الرسول (ﷺ) بنفسه كما جاء في قوله تعالى :

1- ﴿فَاتَّلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنْ

(*) الحيرة: وهي مدينة على بعد ثلاثة أميال من موضع يقال له النجف وكانت مسكن ملوك العرب في الجاهلية حيث اتخذها المناذرة عاصمة لهم . ينظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، 2/328 .

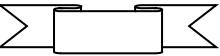
(4) ابن حجر ، الإصابة ، 3/298 .

¹

²

(?) دروزة ، عصر النبي ، ص 125 .

(?) منتجومري وات ، محمد في المدينة ، ص 487 .



**الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْحِزْرَةَ عَنْ يَدِهِمْ
صَاغِرُونَ⁽¹⁾**

**2- وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ الْمَسِيحُ
ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ يَا فَوَاهِهِمْ يُصَاحِهِنَّ قَوْلَ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ قَبْلٍ قَاتَلُهُمُ اللَّهُ أَكْبَرَ يُؤْفَكُونَ⁽²⁾**

**3- يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ يَا فَوَاهِهِمْ وَيَأْتِيَ اللَّهُ إِلَّا
أَنْ يُتَمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرَهُ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ
بِالْهُدَىٰ وَدِينَ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ
الْمُشْرِكُونَ⁽³⁾**

**4- إِنَّا أَيَّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ
لِيَأْكُلُونَ لِمَوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ ...⁽⁴⁾**

بـ- الأحناف : -

هم جماعة من عرب الحجاز من قبائل متفرقة⁽⁵⁾ ، فمنهم من كان من مكة ومنهم من كان من يثرب ومنهم من كان من مناطق الحجاز المختلفة⁽⁶⁾ ، كانوا قد ألموا بالكتب السماوية من صحف وزبور ومجلة لقمان فاستنارت عقولهم ، فأنفوا أن يطلوا يعبدون ما يعبد إياوهم ، فسخرموا من عبادة الأصنام في قومهم⁽⁷⁾ ، وثاروا عليها وعلى المثل الخلقية الفاسدة التي كانت سائدة في مجتمعهم قبل مبعث النبي (ﷺ) والتي تمثلت في الإشراك بالله ، واتخاذهم معبداتهم شفعاء أولياء لهم ، وشرب الخمر ولعب الميسر وأكل الميتة ووأد البنات⁽⁸⁾ ، وإنهم في سبيل الحق تحملوا المشاق والأسفار والصعب إلى أعلى الحجاز وببلاد الشام وأعلى العراق أي المراكز النصرانية ليسألوا الرهبان وأحياناً الأخبار فأشاروا عليهم بوجوب البحث والتأمل في دين إبراهيم

¹ (?) سورة التوبه ، الآية : 29 .

² (?) سورة التوبه ، الآية : 30 .

³ (?) سورة التوبه ، الآية : 33-32 .

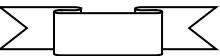
⁴ (?) سورة التوبه ، من الآية : 34 .

⁵ (?) جواد علي ، المفصل ، 6/508 .

⁶ (?) ابن حبيب ، المحبير ، ص 171 ؛ ابن قتيبة ، المعرف ، ص 28 قد أورد أسماء الأحناف .

⁷ (?) ابن حبيب ، المحبير ، ص 171 ، وكان زيد بن عمرو بن نفيل (أول من عاب على قريش ما هم عليه من عبادة الأوثان) .

⁸ (?) المصدر نفسه ، ص 171 .



وإسماعيل (عليهم السلام)⁽¹⁾ ، فمنهم من تنصر ومنهم من أخذ يتبعه على ملة شريعة إبراهيم (ﷺ) أو ما طنه كذلك من بحث وتأمل من أجل الوصول للتوحيد الصحيح الذي لا شائبة فيه حنيفاً كما فعل النبي إبراهيم (ﷺ) كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آرَّ أَتَتَّخِدُ أَصْنَاماً إِلَهَةً إِلَيْيَ أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي صَلَالِ مُؤْمِنٍ ۝ وَكَذَلِكَ تُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلِكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوْقِنِينَ ۝ فَلَمَّا حَنَ عَلَيْهِ اللَّيلُ رَأَى كَوْكِباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَجِبُ الْأَفْلِينَ ۝ ⁽²⁾ ثم قوله : ﴿ إِنِّي وَجَهْتُ وَجْهِي لِلَّهِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ ⁽³⁾ .

ومعنى حنف : أي مال وهي الميل عن الطلال إلى الاستقامة والحنيف هو الذي يميل إلى الحق⁽⁴⁾ ، وقيل هو الذي يستقبل البيت الحرام أو الحاج أو من يختن ، لأن العرب لم تتمسك في الجاهلية بشيء من دين إبراهيم (ﷺ) غير هذين الأمرين وأضاف البعض إليها اعتزال الأصنام والاغتسال من الجنابة⁽⁵⁾ .

كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلْمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۝ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً ۝ قَالَ وَمِنْ ذُرَّتِي قَالَ لَا يَنْالُ عَهْدِي الطَّالِمِينَ ۝ ⁽⁶⁾ .

وفي رواية عن ابن عباس هذه الكلمات بالطهاره خمس في الرأس وخمس في الجسم ، والتي في الجسم هي تقليم الأظافر وحلق العانة والختان وتنف الابط وغسل اثر الغائط⁽⁷⁾ ، ويضيف الطبرى⁽⁸⁾ ، قائلاً : لابد للحنيف من الاستقامة على ملة إبراهيم وإتباعه عليها .

وتذكر الروايات أن الجاهليين جمياً كانوا على دين إبراهيم موحدين يعبدون الله جل جلاله وحده لا يشركون به أحد ، كما في قوله تعالى :-

¹ (?) جواد على ، المفصل ، 6/508 .

² (?) سورة الأنعام ، الآية : 74-76 .

³ (?) سورة الأنعام ، الآية : 79 .

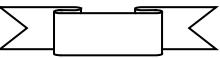
⁴ (?) ابن منظور ، لسان العرب ، 10/44 ، 9/56 ، 9/44 ؛ ينظر: الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، 3/130 .

⁵ (?) المصدر، نفسه ، 10/44 .

⁶ (?) سورة البقرة ، الآية : 124 .

⁷ (?) الطبرى ، تفسيره ، 3/105 وما بعدها .

⁸ (?) المصدر، نفسه ، 3/105 .



1- إِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْكَ أَن تَبْعِث مِلَّةً إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ
مِنَ الْمُشْرِكِينَ⁽¹⁾

2- إِفْلُ إِنَّمَا يَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا
قِيمًا مِلَّةً إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ⁽²⁾

3- فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلَّذِينَ حَنِيفُوا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ
النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيْمُ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ هُنَّ مُنَبِّهُنَ إِلَيْهِ وَإِنَّمَا
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ⁽³⁾.

فكان أول من غير دين إسماعيل (ﷺ) فنصب الأوثان وسيب السائبة ووصل الوصيلة وبحر البحيرة وحمى الحامية هو عمرو بن لحي بن حارثة بن عمر بن عامر الخزاعي⁽⁴⁾، وقد وردت لفظة (حنيفا) و(حنفاء) في القرآن الكريم في أكثر من موضع سواء في الآيات المكية والمدنية على السواء وكما في قوله تعالى : هُوَ الَّذِي أَنْهَى الْمُشْرِكِينَ⁽⁵⁾ ، كما وردت الحنفية في آيات أخرى مرادفة للإسلام كما في قوله تعالى : هُمَا كَانَ
إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصَارَى وَلَكِنَّ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا
كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ هُنَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَأْتِيَنَّ إِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ
أَتَيْنَاهُمْ وَهَذَا النِّيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ⁽⁶⁾

وفي هذه الآية تكذيب منه (ﷺ) لدعوى اليهود والنصارى بأن النبي إبراهيم (ﷺ) على ملتهم ، لأنهم مخالفون لدينه ، وان أمة النبي محمد (ﷺ) (المسلمين) ، هم على قبلته وعلى منهاجه وشرائعه دون سائر الملل والأديان وعنى هنا بحنيف مستقيماً متبعاً لأمر الله وطاعته بملازمة طرق الهدى وهي ما أمر به (ﷺ) من أحكام⁽⁷⁾ ، تعرض هذه الآيات والتي بعدها جدلاً كبيراً دار بين

¹) سورة النحل ، الآية : 123 .

²) سورة الأنعام ، من الآية : 161 ؛ وينظر أيضاً في نفس المعنى سورة يونس ، الآية : 104-105 .

³) سورة الروم ، الآية : 30-31 .

⁴) ابن الكلبي ، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب ، (ت 204هـ)
الأصنام ، تحقيق: احمد زكي ، (القاهرة- د.ت) ، ص 7 ؛ الازرقي ، أخبار
مكة ، 1/74 .

⁵) سورة البقرة ، من الآية : 135 .

⁶) سورة آل عمران ، من الآية : 67-68 .

⁷) الطبرى ، تفسيره ، 3/305 .

النبي من جهة وبين اليهود والنصارى من جهة أخرى ونرى في الآية التالية اشتداد الجدال بين الفريقين .

كما في قوله تعالى : **وَمَنْ يُرْغَبُ عَنِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفَهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اضْطَلَ فِيَّنَا هُوَ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّنِيَّ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اضْطَلَّ فِي لَكُمُ الدِّينِ فَلَا تَمُوْتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَصَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا تَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِنَّهُ آبَاؤُكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَتَحْنُّ لَهُ مُسْلِمُونَ⁽¹⁾ .**

وفي هذه الآية استمرار في تكذيبه (ﷺ) لليهود والنصارى على

لسان نبيه محمد (ﷺ) بالأدلة والبراهين ، فهو لاء المحاججون لم يكونوا حاضرين عند توصية يعقوب لبنيه لعلموا الحق ولما جادلوا فيه وأجابه أولاد يعقوب (ﷺ) لأبيهم بأنهم يعبدون معبودك ومعبد آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إله واحداً مسلمين له بطاعتنا وعبادتنا إياه⁽²⁾ ، ويبدو أن الجدال والنقاش مستمر بين هؤلاء المسلمين ، ويدرك الدكتور محمد عزة دروزة⁽³⁾ ، انه قد يكون بعض الجدالات قد دارت بين مستشرقين العرب أي الأحناف وبين أهل الكتاب من يهود ونصارى حيث شكل هؤلاء وخاصة أئمة اليهود ورهبان النصارى أحد المراجع المهمة للعرب في الجاهلية بادعائهم بنوتهم وإتباعهم ملته فالتوراة هي أول من ذكرت النبي إبراهيم (ﷺ) وكما ذكرنا من وجود اليهود والنصارى في مكة والمدينة ، وربما أن أهل المدينة أخذوا الحنفية من يهود ونصارى المدينة نفسها أو عن طريق ذهابهم إلى مكة للحج أول وجود صلات كثيرة بينهم والدليل على ذلك ما ذكرناه في التمهيد عن اتصال النبي (ﷺ) بأكثر من شخص من أهل يثرب وعرض عليه الإسلام ، ويبدو من سورة آل عمران إن الجدال مستمر بين المسلمين وأهل الكتاب كما في قوله تعالى : **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ تُحَاجُّوْنَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أَنْزَلْتِ التَّوْرَاةَ وَالْأَنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُوْنَ هَا أَنْتُمْ هُؤُلَاءِ حَاجِجُّهُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّوْنَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ⁽⁴⁾ .**

¹ (?) سورة البقرة ، الآية : 130-133 .

² (?) الطبرى ، تفسيره ، 1/562 .

³ (?) عصر النبي ، ص 429 .

⁴ (?) سورة آل عمران ، الآية : 65-66 .

وأيضاً في قوله تعالى : ﴿...فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأُوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الرِّزْرِ ۝ خَنَقَاءَ لِلَّهِ عَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَلَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾⁽¹⁾.

ويبدو لنا من خلال هذه الآيات آلملكية والمدنية بأن هؤلاء الأحناف أي المتعبدين على ملة النبي إبراهيم (ﷺ) كانوا طبقة وان لم تكن كبيرة ولكن لها أثرها وصوت محسوس نستطيع أن نلتمسه من خلال الإشادة والحفاوة البالغة التي أشار إليها القرآن الكريم ، ومن كان على هذه الملة في المدينة ، كما تذكر بعض المصادر التي تصاريخت في جعل هؤلاء مرة من الأحناف ومرة من النصارى ، ومنهم أبو عامر الاوسي الراهب وهو عبد عمر بن صيفي بن النعمان بن عمرو بن عوف من الاوس ، وقد تم ذكره في قصة بناء المسجد ، وعند قدوم النبي (ﷺ) المدينة ، كان له معه خطبٌ طويل وكان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح . وسأل رسول الله (ﷺ) عما جاء به ؟ فأجابه الرسول (ﷺ) : جئت بالحنفية دين إبراهيم . فقال : أنا عليها ، فرد عليه الرسول (ﷺ) قائلاً : ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها ، وسماه رسول الله بالفاسق⁽²⁾.

ومن الأحناف أيضاً أبو قيس صرمة بن أبي أنس وهو من بني النجار وقد ترهب ولبس المسوح ، وهجر الأوثان ، فلما كان قدوم الرسول (ﷺ) المدينة أسلم وحسن إسلامه⁽³⁾ ، ويقال انه هم بالنصرانية وأمسك عنها ، وهو الذي نزلت فيه آية السحور : ...
وَكُلُوا وَأْسِرُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ...⁽⁴⁾

وهو القائل في رسول الله (ﷺ) : ثوى في قريش بضع عشرة حجة بمكة لا يلقى صديقاً مؤاتياً⁽⁵⁾.
 ومن أحناف المدينة أيضاً يذكر ابن سعد⁽⁶⁾ ، أبو الهيثم ابن التيهان اليثري وهو مالك بن بليٰ بن عمرو بن الحاف بن قصاعة حليف لبني عبد الاشهل وكان يكره الأصنام في الجاهلية ويؤلف

¹) سورة الحج ، من الآية : 30-31.

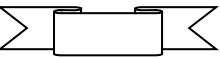
²) ابن هشام ، السيرة ، ق 67/2 : الطبرى ، تفسيره ، 64/9-6.

³) ابن قتيبة ، المعرف ، ص 28.

⁴) سورة البقرة ، من الآية : 187 : ينظر الطبرى ، تفسيره ، 2/97.

⁵) المسعودي ، مروج الذهب ، 1/88.

⁶) الطبقات ، 447/3-448.



بها ويقول بالتوحيد ، ويذكر ابن سعد⁽¹⁾ ، أن اسعد ابن زراره أيضًا قال بالتوحيد وهو ابن عُدّس بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار ويكتنأ أبا إماما ، ويذكر أنه هو وذكوان بن قيس أول من أسلم وأول من قدم بالإسلام المدينة⁽²⁾ ، وإن إيمانه بالتوحيد قبل الإسلام هو الذي دفعه للإسراع بالدخول على الإسلام ، ويكون أول من أسلم من الأنصار ومن الآيات المدنية التي ورد فيها إشارات إلى الأحناف ، كما في قوله تعالى : **﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَيَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبْدَأَ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ...﴾**⁽³⁾

وتذكر الروايات أنهم كانوا طرزاً من النساك زهدوا في الحياة الدنيا وانصرفوا إلى التعبد للإله الواحد الله إبراهيم وإسماعيل ، وحبسوا أنفسهم عن الناس في الكهوف والبراري ، يتحنثون بها ويتبعدون لما تتميز به هذه المواقع من هدوء وسكون⁽⁴⁾ ، ويذكر أن الرسول ﷺ نفسه كان يتحنث قبل بعثه ونزل الوحي عليه في الغار على طريقة الأحناف .

وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم كما في قوله تعالى : **﴿وَوَجَدَكَ صَالًا فَهَدَى﴾**⁽⁵⁾ ، وكذلك سورة الأنعام^(*) .

وتعد مرحلة التحنث هي المرحلة المتطرفة للمعتقدات الدينية إلى الشريعة الحق إلى أن جاء النبي محمد ﷺ بدینه القويم والذي كان أقرب الأديان إلى دين النبي إبراهيم ﷺ .

ج - الصابئة والمجوس :

ورد ذكر الصابئة ثلاثة مرات في القرآن الكريم في إشارة واضحة إلى وجود هذه الطائفة في عصر الرسول ﷺ وانه معروف لدى العرب سواء من أهل مكة والمدينة ، وخاصة أن الآيات الثلاث الواردة في القرآن الكريم هي آيات مدنية نزلت على الرسول الكريم في المدينة .

فكان ورودها في سورة البقرة بعد اليهود والنصارى وهم موحدون وفي سورة المائدة والحج ورد ذكرهم بين اليهود

¹ (?) المصدد ، نفسه ، 3/448 ، 3/608 .

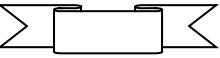
² (?) المصدد ، نفسه ، 3/608 .

³ (?) سورة الممتخنة ، من الآية : 4 .

⁴ (?) جواد علي ، المفصل ، 6/455 .

⁵ (?) سورة الصحفى ، الآية : 7 .

^{*} الآية : 161 ، التي مر ذكرها في بداية الموضوع .



والنصاري ، مما يؤكد أنهم كانوا موحدين شأن الديانتين المذكورتين كما يؤكد وجود هذه الطائفة بشكل من الأشكال⁽¹⁾ . ويذكر الدكتور جواد علي⁽²⁾ : ان دلالة ذكر الصابئة في القرآن إنهم جماعة كانت على دين خاص وأنها طائفة مثل اليهود والنصاري ، ويصيف أن أهل الأخبار ربطوا بين الصابئة المذكورين في القرآن وبين صابئة العراق وجعلوهم طائفتين في الأصل ، طائفة هم صابئة حنفاء من أصحاب النبي إبراهيم ممن كانوا بحران^(*) ، وصابئة مشركون وهم من فسدو من الصابئة فأشركوا واعتقدوا بالكواكب ونسب إليهم عبادة الملائكة⁽³⁾ ، ولا يستبعد أن يكون من الصابئة أو جاؤوا تجارة من العراق أو وقعوا بأيدي النخاسين فاشتراهم تجار وجاؤوا بهم إلى مكة⁽⁴⁾ ، وهذا الأمر لا يستبعد عن يثرب أيضاً ، والآيات التي ورد فيها ذكر الصابئة في القرآن الكريم هي:

1- إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا حَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

2- إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا حَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

3- إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجْوَسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ

¹) دروزة ، عصر النبي ، 420-426 .
²) المفصل ، 1/702 .

^{*} (*) حران : وهي مدينة عظيمة مشهورة من قصبة ديار مصر بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان وعلى طريق الموصل والشام والروم وقيل سميت (بهاران) ، أخي إبراهيم (ﷺ) لأنها أول من بناها فعربت فقيل حران ، وقيل أنها أول مدينة بنيت على الأرض بعد الطوفان وكانت منزلة للصابئة وهي الحرانيون . ينظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، 2/235 .

³) الطبرى ، تفسيره ، 17/129 .

⁴) جواد علي ، المفصل ، 1/702 .

⁵) سورة البقرة ، الآية : 62 .

⁶) سورة المائدة ، الآية : 69 .

⁷) سورة الحج ، من الآية : 17 .

والصابئون جمع صبائي وقيل صاب من صبات النجوم إذا طلعت⁽¹⁾ ، ويذكر ابن الجوزي⁽²⁾ ، في الصابئة سبعة أقوال منها أنهم صنف من النصارى ألين قولهً⁽³⁾ منهم وهم السائحون الملحقة أوساط رؤوسهم وقال أيضاً هم قوم بين النصارى والمجوس ليس لهم دين ، وفي قول آخر له هم فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور ويقولون لا إله إلا الله

ويذكر القرطبي⁽³⁾ ، أيضاً روايات متعددة عن الصابئة ومنها إنهم فرقة من أهل الكتاب بين النصارى واليهودية ولا بأس بذبائحهم ومناكحة نسائهم إلا أن قبلتهم نحو مذهب الجنوب يزعمون أنهم على دين نوح (ﷺ) ، أما الشهرستاني⁽⁴⁾ ، فقد افرد فصلاً مسهباً لشرح أقوالهم وهو مسلكهم مع الروحانيين وان مدار مذهبهم التعصب لهم أي الملائكة ودعوتهم إلى الاكتساب .

ويذكر اللوسي⁽⁵⁾ ، في تفسيره أن الصابئة هم قوم مدار مذهبهم على التعصب للروحانيين واتخاذهم وسائل الفرق الأولى منهم عبادة الكواكب والثانية هم عبادة الأصنام ، وقد زودنا المسعودي⁽⁶⁾ ، بمعلومات واسعة عن الصابئة الحرانيين في كتابه التنبيه والأشراف ومرجع الذهب وخلاصة ما قال : إن الصابئة منسوبون إلى صابئي بن متوصلح بن إدريس على الحنفية الأولى وقيل الصابئي بن ماري وكان في زمان إبراهيم الخليل (ﷺ) .

وقد جاء في اللغة ان الصبئ والصابي معناه الخروج من شيء إلى شيء وخرج من دين إلى دين غيره⁽⁷⁾ ، أي مال أو انحرف كما في قوله تعالى : ﴿...وَإِلَّا تَضْرِفْ عَنِّي كَيْدُهُنَّ أَضْبُتُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾⁽⁸⁾ .

¹ (?) القرطبي ، تفسيره ، 1/434 .

² (?) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ، (ت 597هـ) ، زاد المسير في علم التفسير ، ط 3 ، المكتب الإسلامي ، (بيروت-1404هـ) ، ج 1 ، ص 92 .

³ (?) تفسير ، 1/434 .

⁴ (?) الملل والنحل ، 2/44 .

⁵ (?) أبو الفضل محمود ، (ت 1270) ، روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثانى ، دار إحياء التراث العربي ، (بيروت-د.ت) ، ج 1 ، ص 279 .

⁶ (?) أبو الحسن علي بن الحسين ، (ت 346هـ) ، التنبيه والأشراف ، صححه وراجعه عبد الله اسماعيل الصاوي ، دار الصاوي للطبع والنشر والتاليف ، (مصر-1938) ، ج 3 ، ص 118 ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، 394-2/391 .

⁷ (?) ابن منظور ، لسان العرب ، 1/102 .

⁸ (?) سورة يوسف ، من الآية : 33 .

وقد ذكر ابن خلkan⁽¹⁾ ما قاله المسعودي وأضاف ان الصابئي عند العرب من خرج عن دين قومه ، ولذلك كانت قريش تسمى رسول الله⁽²⁾ صابئاً لخروجه عن دين قومه ، وعند إسلام عمر بن الخطاب⁽³⁾ نادى جميل بن معمر الجمحي في قريش ألا ان ابن الخطاب قد صبا ، فأجاب عمر : كذب ولكنني أسلمت⁽⁴⁾ ، ورجح محمد عزة دروزة⁽⁵⁾ ، أن الصابئة والحنفاء شيء واحد أو طبقة واحدة وإنهم أولئك الذين تخلوا عن دين الإباء الشركي أو الوثنى من مستيري العرب ، وأضاف ان ربط الصابئة الذين ذكروا في القرآن مع صابئ حران والعراق^(الصُّبة) ، أو الصابئة في عهد المأمون يعد تحريفاً وتجاوزاً متأخراً عن الإسلام بقرنين أو أكثر ، لأن هذه الكلمة عربية الأصل والاشتقاق ، وإنها كانت تستعمل في بيته النبي⁽⁶⁾ وتطلق على الذين كانوا ينحرفون عن دين آبائهم من العرب⁽⁷⁾ ، وأورد ابن كثير⁽⁸⁾ ، عن الصابئة الذين جاء ذكرهم في القرآن الكريم رواية نستدل منها على تفسير معقول لورودها مع الفرق الموحدة ، بالإضافة إلى ما ذكره الطبرى عنهم :

الصابئة : (هم فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور . والثانية : ان الصابئي: هو الذي يعرف الله وليس له شريعة يعمل بها ولم يحدث كفراً)⁽⁹⁾

ويبدو ان ما ذكر عن الصابئة في القرآن هم صابئة حران الموحدون وقيل سميت بـ(**هاران**) ، نسبة إلى إبراهيم⁽¹⁰⁾ لأنه أول من بناها فعربت فقيل (حران)⁽¹¹⁾ ، لذلك فأنتا نجد أن معظم المفسرين⁽¹²⁾ يقولون في تفسير الآيتين : **فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**⁽¹³⁾ ، و

¹ (?) أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن أبي بكر ، (ت 681هـ) ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق: د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، (بيروت-1968) ، ج 1 ، ص 54 .

² (?) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، 2/34 .

³ (?) عصر النبي ، ص 426 .

⁴ (?) دروزة ، عصر النبي ، ص 422 .

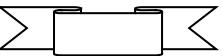
⁵ (?) تفسيره ، 3/104 ، الرواية الأولى عن السدي والمصحاح ، أما الرواية الثانية عن ابن منبه .

⁶ (?) المصدر نفسه ، 3/104 .

⁷ (?) مقالة كاردة فو ، دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة : احمد الشنتاوي وآخرون ، دار الثقافة العربية ، (مصر-1933) ، 90-14/89 .

⁸ (?) الطبرى ، تفسيره ، 20/143 ؛ القرطبي ، 13/339 ؛ ابن كثير ، تفسيره ، 3/186 .

⁹ (?) سورة العنكبوت ، الآية : 26 .



وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ⁽¹⁾

القصد منها مدينة حران لذلك فإن عياض بن غنم حين فتحها أيام الخليفة عمر بن الخطاب (١) سنة ١٨ هـ عاملهم على إنهم أهل كتاب وعقد معهم صلح تقرر بموجبه ضمان حياة سكان المدينة وممتلكاتهم وكنائسهم على أن يدفعوا جزية سنوية⁽²⁾.

إذن ان اختلاف المفسرين في أساس مذهبهم وشريعتهم وكذلك اختلاف أهل الأخبار في تحديد ان كانوا موحدين أم لا لكن هذا الاختلاف يؤكّد كونهم فرقاً مختلفة منهم من قال بالتوحيد لأن ذكرهم في القرآن حسم أمرهم على كون مذهبهم الأصلي هو الموحدون وكذلك أخذ الخليفة عمر بن الخطاب منهم الجزية كبقية الموحدين أمر يؤكد صحة ذلك.

أما المحووس : فهم القائلون ان اصل الكون النور والظلمة ، الخير والشر ويدعون ان الخير من صنع النور وان الشر من صنع الظلمة ، والمحووس هم الفرس وهم عبادة النيران⁽³⁾ ، ويبدو ان ذكر القرآن لهم دليل واضح على معرفة أهل الحجاز لهم ، أما عن طريق التجار الذين يمررون إلى مكة واليمن ، وكان بعض حكام اليمن ممن أرسلهم كسرى لطرد الجيش الحبيسي من اليمن هم من الفرس المحووس ، ومن الممكن أنهم حملوا بعض الناس في اليمن على اعتناق ديانتهم المحووسية ، حيث يذكر ان بعض قبائل حمير في اليمن كانت تعبد النار⁽⁴⁾ ، ولما ظهر الإسلام نبذ هؤلاء المحووسية واعتبرنوا الإسلام كذلك يوجد المحووس في عُمان وبقية أنحاء شرق الجزيرة العربية من تجار ومقيمين بحكم موقعها من الخليج العربي⁽⁵⁾ ، وعند مجيء الإسلام ودخول أهلها في الإسلام بقى بعض أولئك على محوسيتهم ودفعوا الجزية وكذلك محووس البحرين وكذلك هجر واليمامة⁽⁶⁾ ، وقد ورد ذكر المحووس في القرآن الكريم لمرة واحدة مع ديانتين توحيديتين كما جاء في قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ**

¹) سورة الأنبياء ، الآية : 71 .

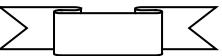
²) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص 174 .

³) ابن منظور ، لسان العرب ، 8/98 : الشهريستاني ، الملل والنحل ، 2/57 .

⁴) دروزة ، عصر النبي ، ص 473 .

⁵) جواد علي ، المفصل ، 6/693 .

⁶) المصدر نفسه ، 6/693 .



يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ⁽¹⁾

ان ورود ذكر الم Gorsus في القرآن وان كان لا يخص Gorsus المدينة وإنما يخاطب أتباع هذه الديانة في عموم الجزيرة العربية وخارجها إلا ان هذه الديانة كانت معروفة لدى أهل المدينة وربما كان بعضهم وان كان قليلاً على هذه الديانة ، حيث يذكر ابن سعد⁽²⁾ ، في حديث عن عبد الله بن عبد الله قال : (جاء

مجوس ي إلى رسول الله ﷺ وقد أعفى شاربه وأخفى لحيته . كما ذكر ان مولى لرسول الله ﷺ اسمه مانا هي وكان مجوسياً تاجراً سمع بذكر الرسول ﷺ فخرج

بتجارتة من مرو (من بلاد فارس) ، حتى قدم المدينة فأسلم⁽³⁾ ، وكانت المدينة تستقبل قبل الهجرة كثيراً من الموالي الفرس وغالبيتهم من الم Gorsus ، كما أوردنا في قصة سلمان الفارسي وكان قد مر في أحد مراحل حياته بالمجوسية ، وفرض رسول الله على مجوس اليمن وهجر الجزية⁽⁴⁾ ، وكانت المدينة قبيل الإسلام مركزاً تجارياً هاماً في الطريق النجاري بين اليمن والجaz والشام والشرق فمن غير المستبعد ان يتواجد فيها تجار من الم Gorsus لغرض التجارة وغيرها .

ان وجود هذه الطوائف والأديان اقتضت من الخالق ﷺ ان يخاطبهم في القرآن وان يضع تنظيمياً لبعض الحقائق والأمور في العلاقات وخاصة في مجال الطعام والزواج ، فكان القرآن الكريم خير مشرع في مجال تنظيم العلاقات في المجتمع المدني المصغر للمجتمع الإسلامي ^ووكما في قوله تعالى :

الْيَوْمَ أَحِلَّ لِكُمُ الطَّيَّابَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا أَتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُخْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِرِينَ وَلَا مُتَّحِدِي أَخْدَانٍ ...⁽⁵⁾ ، وكما تذكر الروايات إن زيد بن ثابت الأنباري التجاري ترجمان الرسول ﷺ قد تعلم السريانية والفارسية

¹ (?) سورة الحج ، الآية : 17 ، الم Gorsus : منهم قوم يعبدون الشمس والقمر والنيران ، ويقال أنهم كانوا يؤمنون بنبي لهم يقال له زراد شت ثم كفروا بشرعيه من بين أظهرهم ؛ ينظر ابن كثير ، تفسيره ، 1/ 573.

² (?) الطبقات ، 1/449 .

³ (?) ابن حجر ، الإصابة ، 3/358 .

⁴ (?) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص 16 .

⁵ (?) سورة المائدة ، من الآية : 5 .

والقبطية في وقت قصير⁽¹⁾ ، فمن أين تعلمها ؟ ، إن لم يكن في
المدينة أناس يتكلمون بهذه
اللغات .

1) ابن سعد ، الطبقات ، 2/358 .